قلقاس بن فرناس

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٣٢٩٤

بطاقة فهرسة

البدالي، عمرو

قلقاس بن فرناس: رواية/ عمرو البدالي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٥٦ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٩-١٨٠-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

أسامة علام

التدقيق اللغوي

أحمد عبدالسلام

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

عمرو البدالي

قلقاس بن فرناس

رواية

"مصر صورة للسموات ويسكن الكون إله هنا في قدس معبدها.. لكن الإله سوف يهجرها، ويعود إلي السماء، ويرتحل من هذا البلد مقر الروحانية.. ستصبح مصر مهجورة، موحشة، محرومة من وجود الإله، يحتلها الدخلاء.. سيضحي هذا البلد مليئًا بالجثث والمآتم.

والنيل المقدس سوف تخضبه الدماء، وستفيض مياهه محملة بالقيح.. ستضحي مصر أرملة.

فكل صوت مقدس سيجبر علي الصمت.. وتفضل الظلمة علي النور، ولن ترتفع عين الي السماء.. سيدمغ الصالح بالبلاهة، وسيكرم الفاسق أنه حكيم.. وسينظر للأحمق أنه شجاع، وسيعتبر الفاسد من أهل الخير.. لن يبقي شيء يروى عنها إلا علي شواهد القبور القديمة.. سيتعب الناس من الحياة، ويكفون عن رؤية الكون كشيء جدير بالإعجاب المقدس.

ولسوف تصبح الروحانية، التي هي أعظم هبات الإله مهددة بالفناء".

متون هرمس

القرن الثاني الميلادي

أنت مُذنب.. أنت مسخٌ متكرر.. غبي.. تعلم جيدًا مكر أعدائك ورغبتهم للفتك بك ومع ذلك تستسلم لهم كل مرة متناسيًا عداوتهم الطاغية.. تصاحبهم وتمشي في دروبهم النجسة.. تتدثر بفحيح شهواتك المُثارة بذكائهم.. أنت مُغيب شره.. طرف خاسر في لعبة لا تنتهى.. وأنت من تعشق خسارتك.. لعبة واحدة بين فريقين وعلى رأسهما اثنان: آدم وإبليس.. رجل خُلق كل شيء لأجله وآخر أقسم على عذاب غريمه الوحيد رافضًا لأي صلح مُحتمل.. اثنان لا يتواءمان مهما مر الزمن.. حرب سجال إلى يوم الدين.. معاركٌ لا تُحصى.. كر وفر.. كلاهما مضطربان.. ومع كل تلك السجلات الشاهدة على خسارة من قبلك ممن اتبعوا أهوائهم.. تُعاند.. تكرر غباؤهم.. تقفز في خندق قاتليك.. تنتمى لكتائبهم مستسلمًا.. أنت ومن معك.. بنو آدم.. والنهاية مُعلنة منذ البداية.. أجيال ستُقذف في الجحيم.. زُمرةّ من الخطائين العُنُد.. من وقعوا بغية إبليس وامتطى آدميتهم حتى خروج الروح.. ألم تفكر لحظة بنهايتك؟؟ ألا تعلم أنك إلى جهنم سائرٌ بصحبة شهواتك..؟؟

يومًا ما سيتقابل آدم وإبليس وجهًا لوجه وكأن الدهر لم يمض طويلًا بين اللقاءين.. سيقف الاثنان حاملين نتيجة حربهما.. ستُرفع رايات النهاية.. يعتقد إبليس وحلفاؤه أنه الفائز لا محالة.. الغالب بتلك الحرب.. هو المنتصر.. المُتألق الغرور.. فقد هُزم آدم ومن سار على دربه.. لتُعلن النتيجة الكبرى.. ليس كل منتصر فائزًا.. الفائز الحقيقي هو من رسب باختبار إبليس ونجا بآدميته مُهاجرًا إلى الله.. الجنة للفائزين بحب الله.. واللعنة لإبليس ومن معه في جحيم لن يهدأ..

الوقت لم يمض بعد.. ما زال هناك متسع من الزمن لتنجو.. كن خاسرًا أفضل لك من الفوز بصحبة أعداء يشتهون رائحة جسدك بالجحيم.. كن أنت كما كنت.. خاليًا من الخطايا.. كن كآدم يوم خلقه.. تسجد لك الدنيا وما فيها.. كن إنسانًا.

د. عمرو البدالي

خريف آدم

(القاهرة –٢٨ يناير ٢٠٥٠)

"مصرع العشرات بميدان التحرير إثر اشتباكات بين الثوار ومجهولين.. هذا وقد تصاعد عدد الضحايا إلى عشرة آلاف قتيل خلال شهر واحد منذ اندلاع الحرب الأهلية بمصر..

إذاعة العربية.. من قلب القاهرة"

ما أشبه اليوم بالبارحة.. هنيئًا لشياطين الأرض والسماء فقد امتلأت بقاع الدنيا بالدماء المتناحرة وبات القتل شريعة يعتنقها الجميع.. كلٌ يحمل بيده سكينًا ويريد ذبح الأخر.. كلٌ يصرخ بأنانيته.. لن يبقى على الأرض غيري.. أنا ومن بعدي الطوفان.. أضحى شعار الجميع.. دبت الضغينة في قلوب البشر فصاروا حيوانات مفترسة تغرس مخالبها في جسد البشرية بأكملها وتنذر بالرحيل.. فالكل هنا إما قاتل أو مقتول أو مشروع لكليهما لا خيار آخر..

اليوم الثامن والعشرون من يناير عام ٢٠٥٠.. وقد مر شهر على نتائج انتخابات الرئاسة المصرية معلنة فوز "نوح سقراط" صاحب الخلفية العسكرية على نظيره "أنور شامخ" ذي الخلفية الإسلامية.. ومنذ إعلان فوز الأول انقلبت الدنيا رأسًا على عقب.. حرائق بكل مؤسسات الدولة.. قتلى بكل الطرق والميادين.. حملة اغتيالات واسعة لقيادات أمنية وعسكرية.. تحولت الساحات المدنية لساحات قتال ممتلئة بدماء لا تجف.. أتلال من الجيف على جانبي الطرق.. لا أحد يمر بسلام.. هكذا كان شعارهم.. لا أحد يدري كيف يحدث ذلك.. وكأنها لعنة أصابت الوطن بكل أنحائه وبات الموت يرفرف بجناحيه في كل مكان حاصدًا أرواحًا لا حصر لها.. وأصوات تتعالى:

– الهدم أهم شروط البناء.. والموت ضريبة الحرية!

أشخاص يتخذون الدين ستارًا للوصول لمآربهم.. يرفعون شعار اللا دولة حتى ينجحوا برفع أعلامهم المدنسة بدماء الآخرين.. وأخرون يعتقدون أن مصر ميراثهم الشرعي ويحاربون كل من تسول له نفسه محاسبتهم.. والوطن يترنح على شفا الجحيم بينهما.. كلٌ يعشق السلطة ولو كانت على أجساد البشر.. وأشتعل الوطن دون توقف.. حتى لو حاول من أشعلها إطفاءها فلن يستطيع.. وماذا يفيد الشاه بعد ذبحها أتعود لها الحياة إن أراد ذابحها؟؟

.. نتيجة متوقعة من صراع دام لسنوات طويلة.. بين فكي السلطة بمصر.. العسكر والإخوان.. اتفاقات سرية وموائمات وانقلابات وصراعات دموية خفية.. سجل حافل يمتد لأكثر من مائة عام..

وآخر تلك الاتفاقات السرية ذلك العفو الرئاسي الصادر بحق كل التنظيمات الإسلامية في عام ٢٠٤٠ وخروج من تبقى منهم حيًا بالسجون إلى الحياة السياسية مرة أخرى.. بل وإعطاؤهم بعض المناصب الفرعية التي لا تضر الطرف الآخر كمحاولة للصلح.. فتح صفحة جديدة من التاريخ المعاصر لتتوقف تلك الحملات الدولية المناهضة للدولة المصرية وكسب بعض الوقت للاستقواء الداخلي بعد شعور السلطة آنذاك أن الشعبية تتناقص يومًا بعد يوم نظرًا للارتفاع الحاد في الأسعار وفرض الضرائب الباهظة..

ضَجّ المواطن بهم وبزغت شمس ثورة جديدة في الأفق.. كان عليهم حجبها بكل الطرق.. فكان حلهم الأخير للخروج من الأزمة هو إطلاق سراح الإخوان ومواليهم واكتساب رضاهم مرة أخرى.. لعلهم يدعمونهم بتلك المرحلة الحرجة.. وها هم يدفعون الثمن.. نقضوا كل عهودهم وترشحوا للانتخابات الرئاسية رغما عنهم.. وبعد خسارتها رفضت التنظيمات الإسلامية النتيجة قلبًا وقالبًا.. وأشعلت النيران بجسد الدولة، ولم يقو الحلفاء القدامى على وأد فتنتهم وتحجيم نتائج تلك الحرب.

خرجت كل الأمور عن السيطرة.. هرع المواطنون للاختباء ببيوتهم خوفًا من وابل الرصاص المنطلق من أسلحة مجهولة.. البعض يقتنع أنها بسبب الإخوان والبعض الآخر يعتقد أن السلطة تورط تلك التنظيمات لفترة لتلقى القبض عليهم مرة أخرى وتودعهم السجون للأبد لتمحوهم تلك المرة من خريطة الدولة المصرية بلا رجعة.. وآخرون يعتقدون أنها لطرف ثالث يعبث بمقدرات الوطن مستفيدًا من ذلك الصراع ولكن الوضع الراهن ينبئ بشيء

واحد فقط.. أن الأمور خرجت عن السيطرة واندلعت حرب أهلية لا تنتهي بكل ربوع مصر وخاصة بالقاهرة العاصمة.. فنادرًا ما تمر بأي من شوارعها ولا تتعثر بجثث لا يقوى أهلها على دفنها حتى لا يموتوا مثلهم.. سيطر الرعب على قلوب الأحياء ولكن خرج الشباب الأنقياء كعادتهم يحاولون إنقاذ ما تبقى من الوطن.. امتلأت الميادين بالثوار الشجعان فاتحين صدورهم للنيران المجهولة يصرخون:

- يسقط يسقط حكم العسكر

- يسقط يسقط حكم العسكر

- حرية.. حرية.. حرية

مجموعة من الثوار المتعلقين بالأمل بحياة كريمة بالرغم من كم الضياع المنتشر حولهم.. شباب حالم لم يرجع عن ميادين الثورة وأقسم على الموت دونها بحثًا عن الحل تبعًا لقناعاتهم.. وانضم إليهم بعض الفقراء ممن تمزقوا بقرارات الدولة العنترية.. مساكين لا يجدون لقمة العيش حتى وسط صناديق القمامة.. أفضلهم تذوق قطعة لحم منذ أكثر من عشر سنوات.. لم يعد الناس يأكلون اللحم بعد أن وصل ثمن الرطل لأكثر من ألف جنيه.. علت الأسعار بشكل جنوني ودُهِس المواطن بكل فئاته دون رحمة.. ووسط الخراب صرخوا بطلباتهم المشروعة.

اعتقدوا أنّ الحل الوحيد للخروج من الأزمة هو حكومة مدنية منتقاة بعناية وأن يعود الجيش لحماية الحدود بعيدًا عن السلطة.. ذلك المطلب الوحيد لهم منذ أكثر من خمس وثلاثين عامًا.

لو لم يتمسك العسكر بالحكم بهذه الطريقة.. لو أنهم سمحوا بتداول السلطة لما اندلعت هذه الحرب الأهلية.. تتعالى صيحاتهم بكل ما لديهم من قوة:

- يسقط يسقط حكم العسكر

كنت واقفًا بأحد الشوارع المؤدية لميدان التحرير متوجسًا خائفًا من المرور وسط هؤلاء الثوار الشرفاء مشفقًا عليهم من تربص البعض فربما يتساقط عليهم وابل من الرصاص المجهول ويردي بعضهم قتلى وقد أكون واحدًا منهم.. كنت مرتعدًا من مجرد فكرة الموت.. فأنا أكثر الإنس خوفًا من الموت.. خوًفا من المجهول.

كان على مقربة مني رجل عجوز طاعن بالسن يمسك بيده قردًا صغيرًا ودفًا ينقر بأصابعه عليه بشكل إيقاعي يتراقص له القرد وكأنه في دنيا أخرى.. ليست المرة الأولى التي أرى فيها هذا الرجل وتعجبت كثيرًا أنه ينجو حتى الآن من الموت الجبري بهذه الأحداث هو وقرده الهزيل..

كان يغني له:

- الليل الليل الليل.. الليل يا ميمون

ويتراقص القرد وسط المتظاهرين دون توقف.. وكأن أصواتهم تساعده على التمايل والاستعراض.. لم أفهم ذلك الرجل مطلقًا.. هل يسعى إلى جني بعض المال من هؤلاء الثوار نظير عرضه الراقص؟؟ لا أظن ذلك.. كانت عيناه غائرتين وتجاعيد وجهه محفور بها سنين من الحرمان تستنتجها بمجرد

النظر إليه.. والعجيب أن جميع من حوله يعتبرونه والعدم سواء.. يستكملون هتافاتهم بكل حماس:

- يسقط يسقط حكم العسكر

ويغني هو بحماس أكبر كلما تمايل القرد أكثر وأكثر

- الليل الليل الليل.. الليل يا ميمون

نظرت بعينيه مارًا بجواره.. لم يكن لدي وقت لأسأله:

- من أنت ؟؟ ولماذا تصر على الرقص بقردك وسط هذا الخراب؟؟

- الليل الليل الليل.. الليل يا ميمون

تراقص القرد كعادته ربما طمعًا في بعض الطعام بعد انتهاء فقرته.. تراقص كل يوم على الرغم أنه ليس بميمون.. تخيلت للحظات أننا جميعنا ميمون.. جميعنا يتراقص على طريقته وسط عرض كبير دون أن نعرف سببًا لذلك.. وكأننا عرائس متحركة يختفي محركها خلف الستار.. هذا يقتل وهذا يثور وهذا يموت وهذا يتمسك بالسلطة.. من المحرك لكل هذا؟؟ ليتني أعرف وأفهم.. فأنا مشوش كأغلب المصريين.. أعيش اليوم بيومه.. أحمل بداخلي النقيضين.. المؤمن والكافر.. العاشق والكاره.. المحارب والجبان.. المحب للحياة والمبغض لتفاصيلها.. أنا الحكيم والسفيه بآن واحد.. أنا الإنسان بكل تناقضاته..

أنا "آدم فؤاد قلقاس"

لم أنعم بعد بحياتي التي عانيت طوال التسعة والثلاثين عامًا الماضية، باحثًا فيها عن ذاتي.. فمنذ ولادتي معذبًا هنا بالقرب من ذلك المكان، الذي أقف فيه مرتعدًا من الموت.. هذه القصة التي طالعت أخبارها في الصحف والمجلات القديمة، بعدما صرت شابًا، وقارنتها بحكاوي عمي إبراهيم قلقاس.. فقد ولدت يتيم الأب والأم.. ماتا في نفس الليلة التي ولدت بها.. لأُقبل على الدنيا مولودًا تعيسًا، غادر الفرح والحنان والرعاية دنياه منذ طلته الأولى..

فؤاد قلقاس.. والدي.. مقدم شرطة يهرب بسيارته ليلة الثامن والعشرين من يناير عام ٢٠١١، أي منذ تسعة وثلاثين عامًا بالتحديد.. يفر من الثوار الراغبين بالفتك به، ليلحق بزوجته الصارخة بجواره لدنو موعد ولادتها، لأقرب مستشفى.. وفجأة غاصت سيارته في أمواج عاتية من الثوار الغاضبين.. صرخت والدتي:

- لا أستطيع أن أتحمل الألم يا فؤاد.. سألد في السيارة!

- مهلا.. سنصل المستشفى بعد دقائق.. أرجوكم زوجتي على وشك الولادة.. أرجوكم!

أفسحوا الطريق.

كانت بدلته الميري تفضحه في هذه الدقائق الحاسمة.. وصمة عار لم يكن له ذنب فيها.. انهال عليه الثوار دون رحمة.. هجوم حاد بكل غل وانتقام.. لم توقفهم صرخات أمي وتوسلاتها.. فتكوا بوالدي ضربًا وكأنهم يحاكمونه

على الفور بأفعال لم يرتكبها بحقهم.. ما أوجع أن تدفع ثمن الأغبياء بجهاز أنت تمثله!.. فجهاز الشرطة مثل أي مؤسسة بها الصالح والطالح.. فليس من العدل أن تحرق الجميع بذنوب فردية.. فصالحها لا يدفع ثمن طالحها مهما كان ظلم الأخير.

ولكن بغياب العقل والغضب الجامح المسيطر على القلوب، مات والدي من آثر التعذيب.

وتعالت صرخات والدتي تحت أقدامهم وهي ترى زوجها يفارق الحياة.. لم تدرك أنها ستلحق به بعد دقائق معدودة.. فهنا في مكان قريب.. وُلِدْتُ بأحد الخيام.. البعض ممن يحملون الرحمة بقلوبهم حملوها لتلك الخيمة في منتصف ميدان التحرير، حيث عدد من الأطباء الميدانيين لإسعاف الجرحى والمصابين.. وفي دقائق معدودة خرجت طفلًا صارخًا، وسط هذه الحياة البغيضة.. امتزجت صرخاتي بهتافات الآلاف من قاطني الميدان الباحثين عن العدل سُدى:

– عيش، حرية، عدالة اجتماعية.

بقيت بهذا المكان يومًا كاملًا تحت رعاية إحدى الطبيبات، بعد إعلان وفاة والدتي هي الأخرى.. وفي اليوم التالي بعد عودة الاتصالات الهاتفية مرة أخرى، استطاع أحد الشباب الاتصال بآخر رقم على هاتف والدي المتوفى، ليخبره ما حدث.. فكان عمي إبراهيم قلقاس.. هرع ليستلم ابن أخيه اليتيم.. ليتسلمني.. شقّ طريقه إلى خيمة ولادتي، والدموع تملأ عينيه،

حزنًا على أخيه الراحل دون ذنب وزوجته.. متألمًا على مولود سيعيش مُعذبًا طوال حياته، لفقدانه أعز الناس.

دخل عمي إلى الخيمة ووقع نظره عليّ متسائلًا:

– أهذا هو مولود أخي؟؟

أجابته الطبيبة الممسكة بي:

– نعم إنه هو

– تعال.. تعال يا ولدي

احتضنني حينها بكلتا يديه.. سالت الدموع من عينيه.. سألته الطبيبة الميدانية:

– بماذا ستناديه؟؟

– آدم.. آدم فؤاد قلقاس

قص عليّ عمي هذه الحكاية مرات ومرات وكل مرة كان يبكي فيها كثيرًا.. وصف لي تلك النظرة التي رافقته طويلًا كلما رآني.. شفقة وحب ممتزجان بآن واحد.. كان دائمًا يتساءل:

– ما ذنب ذلك الطفل أن يتحمل هذه الحياة القاسية؟؟

ماذا جنته يداه ليصبح لاعبًا في مباراة لم يخترها ولم يكن يومًا يُريدها؟؟

كان عمي "إبراهيم قلقاس" يحبني بشدة.. عشت وترعرعت في كنفه بشقته الصغيرة تلك القابعة على أطراف ميدان التحرير.. كان بارعًا في القصص

والحكايات.. لطالما كنت أشتاق ليوم العطلة الأسبوعية، لأجلس منتظرًا حكايته الجديدة.. قصة كل أسبوع.. عادة لم يقطعها معي طوال تسعة عشر عامًا.. حتى صرت شابًا يافعًا.. قصص عن الأولين.. حكاوي عن التاريخ الظاهر منها والباطن.. منها الحقيقي ومنها من وحي خياله الخصيب..

أتذكر جيدًا تلك القصة التي ظل يرويها لي سنين طويلة.. عن شخص خيالي يعيش منذ نشأة الكون حتى يومنا هذا.. شخص أسطوري شاهد على كل العصور.. عمره ملايين السنين.. وكل قصصه كانت من وجهة نظر ذلك الشخص الخارق.. كنت أحبه كثيرًا وأعشق حكاويه.. حتى صحوت بأحد الليالي منذ عشرين عامًا، لينتهي كل شيء.. أتذكرها كأنها البارحة.. ليلة غاب فيها القمر عن السماء.. قُبض قلبي فجأة وصحوت مفزوعًا من النوم باحثًا عن عمي بأرجاء الشقة.. لأكتشف أنني صرت وحيدًا بلا داعم بقية حياتي.. اختفى عمي تمامًا بطريقة غامضة، تاركًا لي رسالة بخط يده، ما زلت احتفظ بها حتى الآن..

– عزيزي آدم.. لم يكن لي خيارٌ آخر.. اضطررت لفعل ذلك.. لا تبحث عني..

تركت لك مبلغًا من المال.. تحصّنْ به حتى تنال ما تريد بحياتك.

فالمال قوة لا يستهان بها.. قف بحياتك صلبًا حتى النهاية.. سأشتاق إليك.

رسالة غامضة من عم وحيد كانت كل سندي بالحياة.. ومال مريب، فلم يملك عمي مالا وفيرًا كهذا طيلة حياتي.. مال ساعدني على الحياة بدونه،

والصمود وحيدًا وسط دروب الحياة القاسية.. لم يتزوج عمي طوال حياته.. وأكاد أجزم أنه لم يتعلق بالجنس الآخر مطلقًا.. لم أسمعه مرة يتحدث عن فتاة لفتت انتباهه.. كنت أمزح معه كثيرًا:

- ألن تتزوج يا عمي؟؟

- كلا.. لا أريد الزواج لأعتني بك جيدًا.

إبراهيم قلقاس عالم من طراز خاص.. قضى عمره هائمًا بين دروب التاريخ والتجارب العلمية لأسلافه.. سيطرت على عقله فكرة واحدة حاول مرارًا وتكرارًا أن يلهث وراء إثباتها.. هذا الكون الذي نعيش على أرضه داخل مجرة درب التبانة، أهو الوحيد في هذا العالم المجهول؟ أم أن هناك أكوانًا موازية تعيش بها كائنات أخرى جنبًا إلى جنب لنا؟؟.. هل الزمن وحدة واحدة تتصاعد، أم أن هناك أزمانًا متعددة متوازية؟؟.. وبمعنى أكثر بساطة.. تلك الأحداث التي حدثت في الماضي السحيق كعصر الديناصورات مثلًا.. هل حدثت على نفس الأرض التي نعيش عليها، أم أنها تحدث الآن على أرض أخرى، بمجرة كونية بعيدة عنا لها قوانينها الخاصة؟؟ والفارق بيننا هو سرعة الزمن فقط، وكأن حياة الإنسان على الأرض تتكرر بنفس الزمن، بأماكن متوازية، بحيوات متباعدة متناحرة، من المستحيل ترابطها.. ولكنه شغل باله بذلك المستحيل.. هل يستطيع إبراهيم قلقاس اختراق الزمن والعيش بالماضي السحيق؟؟ هل سيتوصل لاختراع يقلب العالم رأسًا على عقب لتتحكم بماضيك وبمستقبلك أو على الأقل تعايشه أمامك رأى العين كأنه فيلمٌ سينمائي ذو بداية ووسط ونهاية..؟؟

هل يمكن أن تجلس بجوار نفسك، وأنت تواجه الموت شيخًا عجوزًا، وروحك تُزهق وأنت تخبرها أنك رسول من الماضي لها؟؟

هل يمكنك منع والدك من الزواج بوالدتك، حتى لا تأتي لهذه الدنيا الميت بنهاية رحلتك فيها لا محالة؟؟

هل يمكنك تغيير التاريخ؟؟

أسئلة عديدة شغلت بال إبراهيم قلقاس عن كل شيء بالحياة.. كان يعلم أن العمر قصير، وعليه ترك بصمة بجيله، لعل اسمه يُكتب بين عظماء التاريخ.

عاش إبراهيم قلقاس خريج كلية العلوم، في منزل صغير بميدان التحرير، في عزلة عن المجتمع معي.. ابن أخيه اليتيم.. آدم.. الفتى المسكين ابن الثورة المصرية.. وكأنه كُتب عليّ العذاب طوال حياتي، جنينًا مشوهًا بزمن لم أختره أبدًا إن كان لدي اختيار.. زمن مُسخ فيه كل شيء، وزاد فيه الظلم، وغابت الأحلام عن أصحابها، فأقصى ما يمكن أن تناله فيها هو البقاء على قيد الحياة، بعيدًا عن بطش السلطة الحاكمة..

كان عمي يغيب بالأيام داخل غرفته، وسط تجاربه العلمية مع صديقه الوحيد عزام عزام.. الوجه الآخر له.. الوحيد الراعي ليّ، بعد اختفاء عمي منذ عشرين عامًا.. الرجل الأقل طموحًا الأرق قلبًا.. لم يهنأ عزام بحياته الشخصية، فقد ماتت زوجته في السنة الأولى من زواجه بمرض غير معلوم، ومات ابنه في بطنها، وعاش باقي حياته على ذكراها، رافضًا الزواج من

غيرها، على أمل اللقاء بها في حياة الآخرة.. كان يصلي ليلَ نهار لله، داعيًا أن يجمع بينهما في جنة الخلد.. نموذجًا عظيمًا للوفاء.. غرق بكتبه وتجاربه العلمية.. قرأ في كل شيء، حتى إنه يكاد أن يتوج ملكًا للمعرفة بالعصر الحديث.. كم من المرات حاول عمي إخراجه من حالة الزهد المُسيطرة عليه، دون جدوى..

تعجب عزام كثيرًا من اختفاء إبراهيم قلقاس المفاجئ، ولطالما أخبرني أنه كان غريب الأطوار في الفترة الأخيرة.. كثير الشرود.. حتى إنه احتضنه آخر مرة رآه فيها باكيًا على غير العادة.. فسأله متعجبًا:

– لماذا تبكي يا قلقاس؟؟

– تذكرت زوجتك يا عزام!

– ومنذ متى وأنت مرهف الحس هكذا ؟؟

– ما زلت لا تعرفني جيدًا يا صديقي..

– إنها المرة الأولى التي أراك تبكي فيها.

– ذلك القلب يبكي ويحزن ويتأثر.. لم أكن قاسيًا يومًا ما.

– إبراهيم! ما الأمر؟؟ ماذا دهاك الليلة؟؟

– لا شيء.. هيا عُدّ الى منزلك.. فأنا متعب وأريد النوم.

واختفى إبراهيم قلقاس.. ولم تُجد محاولاتنا المستمرة أنا وصديق عمره عزام عزام لإيجاده، بشيء يُذكر.. باءت محاولاتنا بالفشل الذريع.. لم يعد له أثر، وكأنه لم يوجد بدنيانا من الأساس..

صارعت تلك الوحدة القاسية الملازمة ليّ منذ ولادتي.. وحققتُ حلمًا كان يُراودني كثيرًا.. وأصبحت طيارًا أسافر بين بلاد العالم، باحثًا عن ملاذٍ آخر بين عيونٍ غريبة، لأناس من جنسيات عديدة، لعلي أجد بينهم الأمان والحنان المُفتقد لهما طيلة عمري، دون جدوى..

ترنحت بين معتقدات كثيرة.. قادني عقلي للإلحاد لبعض الوقت، ولكنني عُدت مرة أخرى بعد جلسة مطولة مع شيخ طاعن في السن، صحبني إليه عزام بعد إلحاح شديد.. كان هناك سؤال واحد قادني لنكران وجود الله.. أو هكذا صور ليّ الشيطان آنذاك:

– إن كان الله موجودًا حقًا، فلماذا يسمح بهذه الحروب والفوضى في كل مكان بالعالم، وبهؤلاء القتلى الأطفال الذين لا ذنب لهم؟.. لماذا لا يقف الله بجوار عباده المسلمين؟.. أهذا هو العدل الإلهي؟؟ وإن كان موجودًا ويرضى بكل ذلك ويعرف مسبقًا بحدوثه، فالسؤال.. هل الله شرير؟؟

ابتسم ليّ ذلك الشيخ ابتسامة لم أنسها مطلقًا.. أجابني بثقة استفزتني حينها:

– (وَلاَ تَحْسَبَنَ اللّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ).

ابتسمت حينها ساخرًا منه غير مقتنع.. فاستكمل حديثه ناظرًا بعينيّ:

– هل تعرف قصة فرعون؟؟

– نعم أعرفها.

– ما رأيك فيها؟؟

لم أفهم حينها مقصده فلم أجب على سؤاله.. حافظ على ابتسامته مربتًا على يدي:

– في يوم من الأيام، رأى فرعون في منامه نارًا عظيمة تخرج من بيت المقدس، تأكل كل ما في طريقها زاحفة إلى مصر. وإذ وصلت، أحرقت كل بيوت آل فرعون، وتركت بيوت بني إسرائيل كما هي..

فارتجف فرعون وذهب إلى كهنته، فأخبروه أنّ هناك صبيًّا يولد من بني إسرائيل، سينهي ملكه ويكون هلاكه على يده، وبنو إسرائيل يعيش أغلبهم في مصر، منذ مجيء يوسف عليه السلام وإخوته وأهله واستقروا بها..

فهنا قرر فرعون قتل أي صبي يولد من بني إسرائيل.. فتوسل إليه الكهنة:

– إذا قتلتَ جميع غلمان بني إسرائيل، فمن يخدمنا ويلبى طلباتنا؟؟

فقرر أن يقتل الصبية في عام، والعام الآخر يتركهم يعيشون. ففي العام الذي تركهم يعيشون وُلد نبي الله هارون عليه السلام، وفى العام الذى أمر بقتل أي صبي ولد موسى عليه السلام!

نقمة كبيرة.. حاكم ظالم يقتل الأطفال ويستحيي نساءهم، ويفرض الضرائب الباهظة ويستعبدهم.

لو كنتَ تعيش في هذه الفترة معهم.. فاسأل أين الله مِن قتل الأطفال؟؟ أين الله مِن كل هذا الظلم؟؟

هل عرفت الإجابة؟؟

ولد موسى وحماه الله من الموت، بلّ وتربى في بيت فرعون ذاته، وبعد سنين طويلة.. يرفع الله الظلم عن عباده، ويُغرق فرعون وجنوده.. لتصبح قصته آية لمن يخلفه..

إن الله يمهل ولا يهمل!

يا بني.. الله عادل. ويختبر عباده في الدنيا، ويمهلهم لعلهم يرجعون.

الله أمرنا أن نحكم بشرعه الموجود بكتابه الكريم.. أمرنا أن نكون خلفاء له في الأرض.. نصحنا بذلك منذ بداية خلقنا.. فإن نحن خرجنا عن ذلك..

وظلمنا بعضنا بعضًا وتجبرنا.. أهو ظالم أم نحن ظلمنا أنفسنا؟؟

لازمتُ الصمت حينها أيامًا وأيامًا، أُفكر في ذلك المنطق، حتى عدتُ مرة أخرى إلى رحاب الله.. اقتنعت أنّ كل المصائب التي نعيشها في حياتنا، هي من صنع أيدينا، وليس من صنع الله.. بل يتركها الله عقابًا لنا، لعلنا نرجع..

خرجتُ من هذه التجربة مُتفتح الذهن قوي الحجة.. ولكن بقيت تائهًا في دروب تلك الحياة، كغريب ببلاد يملأها الوافدون.. وبمرور الأيام تعودت وصرت وافدًا قديمًا، يبحث عن صورة ممسوخة من حياة الآخرين.. وانشغلت بملهاة الحياة.. سيرك منصوب منذ قديم الأزل.. والجميع هنا يتراقص بطريقته لينال تصفيق غيره.. والسعادة سراب يبتعد.. كلما اقتربت منها اكتشفت زيفها.. أسى يجذبك للأعماق أكثر وأكثر.. أمواج

عاتية تُصارعها طوال حياتك، باحثًا عن الرضا.. فلا تشعر به ولا تكفّ عن الغرق.

أدمنت المخدرات لبعض الوقت، وشربت الخمور بأنواعها، واقتنصت كل متعة محرمة طالتها يداي.. تنقلت بين أحضان الجميلات أنهل من سحرهن.. وكأنّ قلبي في سباق لا ينتهي.. يتمنى الاستقرار، ولكنْ هناك شيء يجبره على استمرار العدو.. وكأنّ الحياة الدنيا لا تعرف الهدوء النفسي.. كاذب من يخرج على شاشات التلفاز ويدّعي الرضا..

عملة ممنوعة ومستحيل تواجدها في حياتنا.. أو هكذا كنت أشعر حينها.. حتى تعرفت على فتاة رائعة الجمال: رضوى شاهين.. أميرة قلبي.. من استطاعت فك أسره من بين سجون أزلية، وتحريره بسماء عشقها منذ الوهلة الأولى التي رأيتها فيها.. رضوى فتاة مطلقة.. سبق لها الزواج برجل لم يُقدر وديعة الله، وطلقها بعد عام واحد من زواجه بها.. وبقيت وحيدة مثلي تمامًا.. كنت رافضًا للزواج إلى أن رأيتها.. لا أدري ما الفارق بينها وبين الأخريات قبلها.. ولكنه العشق.. عرفته لأول مرة بين شطآن عينيها الزرقاوين.. تمنيت الغرق فيهما طوال حياتي.. وعدت كما كنت قبل عشرة أعوام: شابًّا منضبطًا يصلي الفرض بفرضه.. إنسانًا متدينًا بالفطرة.. وكأنّ العشق طهرني ودعاني للتوبة.

كنت مُتعجلًا للقائها.. عليّ بالإسراع في المرور وسط هؤلاء الثوار، للوصول لبيت عمي إبراهيم قلقاس.. ذلك البيت الذي هجرته منذ سنوات طويلة.. عُدت إليه منذ ثلاثة أسابيع فقط.. كان الملجأ الوحيد البعيد عن

أعين مشعلي الحرب الأهلية.. فوالد حبيبتي رضوى.. رئيس الوزراء شاهين حامد، المُستقيل بعد إعلان نتائج انتخابات الرئاسة.. على الرغم من تجديد الثقة فيه، وحلف اليمين أمام الرئيس الجديد نوح سقراط، وبدئه بتشكيل الحكومة الجديدة، إلا أن الثوار أجبروه على الاستقالة.. وليس ذلك فقط.. بل وضعوا اسمه ضمن قائمة المطلوب محاكماتهم، على أفعالهم ضد الثورة.. وأشهد الله أنّ ذلك الرجل نظيف اليد، وحاول كثيرًا تصحيح الأمور فترة توليه المسئولية، ولكنه فشل.. ولا أدري من وضع اسمه في هذه القائمة السوداء.. وامتلأت الميادين بصوره وآخرين، موضوعًا عليها علامات "x"..

واستطعت تهريبه مُرتديًا نقابًا هو وعائلته، لتلك الشقة المطلة على ميدان التحرير مباشرة.. فأفضل مكان للاختباء من أعدائك يكون بين صفوفهم.. وطلبت منه وزوجته غلق هواتفهم تمامًا وكذلك رضوى، وكنت أتواصل معهم من خلال هاتف الشقة الأرضي..

كنت أختلف معه كثيرًا حينما أجده حزينًا، نادمًا على وقوفه بجوار الوطن في هذه الفترة الحرجة.

في آخر جلسة بيننا قالها ليّ صراحة:

- كان عليّ رفض ذلك المنصب منذ البداية!

- ولو رفضنا كلنا الوقوف مع الوطن في أحلك الظروف.. من سينقذه إذن؟؟

– وهل أنقذته..؟؟ كل ما حدث أنني وُصمت بعارٍ ليس ليّ ذنب فيه..

– لا أعرف من المتسبب في ذلك.. أكان بيديك شيء تفعله وتقاعست عنه؟؟

– هذا الشعب تعوَّد على الاستهلاك والتبجح..؟؟

– لا تُلقِ اللوم على المجني عليه يا سيدي أرجوك!

– ونحن أيضًا مجني علينا.

– إذن فابحث عن الجاني الحقيقي وحاكمه.

– ما فعلته انتحار يا آدم.. كان عليّ الانتباه أن ليّ زوجة وبنتًا وحيدة، عليّ الحفاظ على أمنهما، بعيدًا عن هذه المناصب الزائفة..

– من كان يدري أنّ كل هذا سيحدث؟؟

– لا تغالط نفسك.. رأيتَ بعينيك فشل من سبقوني برئاسة الوزارة..

واستشعرتَ غضب الناس، وتدهور الأحوال الاقتصادية، والوعود الكاذبة المستمرة بصلاح الأحوال.. كنتُ أول المنتقدين للحكومة السابقة والرئاسة وأدائهما بكل حدة.. ومع ذلك صرتُ واحدًا منهم..

– لا جدوى من المناقشة الآن.. فلا أحد يعرف من المتسبب بهذه الفوضى والخراب.

للحق لا أعرف من يتحمل وزر ما يحدث بالشارع المصري.. أتتحمله السلطة الحاكمة المستمرة في الحكم منذ عقود طويلة، بانتخابات عادلة

ظاهريًا؟؟ فالناس يختارونهم حقًا لأنهم يشكلون وعيهم بكل وسائل الإعلام، فلا عجب من نجاحهم في الانتخابات إذن.. أم يتحمله أولئك المُدّعون بحمل راية الدين الإسلامي، وهم أبعد ما يكونون عنه؟؟ أم طرف ثالث يوسع تلك الفجوة بين الاثنين، ويشعل النار بينهما، ويحافظ على استمرار الشقاق..؟؟ حقًا أمر يحير الجميع.

تركت سيارتي في آخر الشارع المؤدي للميدان، واضطررت لاختراق ذلك الجمع البشري والهتاف معهم:

- يسقط يسقط حكم العسكر

- يسقط يسقط حكم العسكر

كنت خائفًا بشدة.. فتلال من الجثث على جانبي الطريق، ويتعامل معها الثوار وكأنها شيء اعتيادي، لن يُثنيهم عن استكمال مشوارهم.. رائحة الجيف خانقة.. ولكنك بعد فترة ستعتاد عليها، وستصبح جزءًا من مكونات هوائك.. ترى آثارًا للدماء المتناثرة على الحوائط، والمختلطة راسمة أكثر اللوحات قذارة وخسّة.

تذكرت إحدى المرات التي نجوت فيها بأعجوبة من نفس المكان.. ذلك الالتحام الدموي بين مؤيدي الرئيس ومعارضيه في نفس البقعة.. كانوا يهتفون بحماس مفرط، وكأنهم يتبارزون بهتافاتهم:

- نوح سقراط.. نوح سقراط..

حبيب الكل.. سقراط..

أب الكل.. سقراط

كبير الكل.. سقراط

نوح سقراط.. نوح سقراط

ويهتف الآخرون:

- يسقط يسقط حكم العسكر

كلٌ يعلو بصوته فوق الآخر حتى التحم الجمعان، وانطلق عليهم وابلٌ من الرصاص المجهول المصدر، وخلف بينهم مئاتٍ من الجثث، ونجوتُ حينها بمعجزة إلهية..

هناك على مدى البصر سيارات للشرطة محترقة.. ففي بداية التظاهرات كانت الشرطة تحاول السيطرة، قبل أن تهرب تمامًا وتترك الميادين بلّ والسجون وأقسام الشرطة، وكأنه بغمضة عين أصبحت مصر خالية من رجال يحمونها، وكأنها وظيفة وهمية لم تكن موجودة يومًا ما.. ذلك بعد قتل العديد من رجال الشرطة وحرقهم، على مرأى ومسمع من الكثيرين..

حتى رجال القوات المسلحة انسحبوا من كل الميادين.. فلم يكن مرحبًا بهم كما اعتادوا في الماضي.. أتذكر حادثة شهيرة حدثت منذ شهر تقريبًا.. وهى إلقاء قنابل حارقة على عدد من الدبابات، واشتعالها عن بكرة أبيها.. وجاءت الأوامر بالانسحاب، وعدم التعرض للمواطنين الغاضبين حتى تهدأ الأمور.. ولكنها ظلت تسوء يومًا بعد يوم.. ولا أحد يعرف من المسئول عن كل ذلك؟؟ من المايسترو المُدبر بحنكة لهذه المجازر الجماعية؟

كنت أتحرك في جموع المتظاهرين، وأهتف معهم متخفيًا بينهم.. أتوقع في أية لحظة احتضان عزرائيل لي ولمن حولي، دون تمييز.. هكذا كنت أشعر في كل مرة آتي فيها إلى هذا البيت..

ولكن هذه هي المرة الأخيرة.. بعد دقائق معدودة سنأخذهم من ذلك البيت، لنذهب إلى مكان آخر.. فبالأمس تلقيت هاتفًا رسميًا من مكتب رئاسة الجمهورية، يبشرني بتولي منصب مستشار الرئيس لشؤون الشباب.. وقبلته على الفور.. كنت أعلم جيدًا أنه طوق النجاة لوالد رضوى رغمًا عنه.. وأعلم أيضًا أنني حصلت على هذا المنصب بسببه، إرضاءً له من نوح سقراط، المُجبر مسبقًا على قبول استقالته لتهدئة الأوضاع.. كانت الرسالة واضحة!

أدركتُ أن الرئاسة تُهديني ذلك المنصب لتلتفّ على الثوار، وتثبت لهم أنهم الأذكى.. أنهم الأقدر على حماية رجالهم..

وكان بديهيًا أن أصطحب رئيس الوزراء الأسبق وابنته وزوجته، للقصر الرئاسي، في الميعاد المحدد لمقابلتي.. أو للحق لنقل أنه كان طلبي الوحيد ممن قاموا بالاتصال بي ووافقوا..

– مرحبًا بمن معك سيد آدم.. سيادة الرئيس ينتظركم بالميعاد.

الرئاسة تعلم أنّ شاهين حامد مطلوب من الثوار.. وتعلم أيضا أنه هارب ومختفٍ بمكان لا يعرفونه.. وربما أرادوا حمايته من خلالي.. وكأن ذلك المنصب شفرة قمت بحلها على الفور..

وصلت إلى البيت، وصعدت درجات السلم القديم، وخبطت على الباب خمس خبطات.. هكذا اتفقت مع رضوى.. هذه شفرتنا.. لا تفتح الباب أبدًا لغير ذلك..

فتحت رضوى شاهين الباب.. شعور راسخ بالأمان ينتابني بمجرد النظر بعينيها.. وكأنها النافذة الصغيرة التي اخترت أن أرى من خلالها الدنيا.. أو لنقُل جنة الله على الأرض.. لم يكن هذا فقط لجمالها الأخّاذ، وعينيها الواسعتين ذواتي اللون الأزرق، وشعرها المائل للأصفر، وقوامها الممشوق، بل لسحر روحها.. فقد تشك أحيانًا أنها ملاك هارب من السماء خصيصًا، ليمنحني السعادة على أرض، لم يُكتب لها العيش بها إلا معي.. واقترب موعد زفافنا كما كنا نخطط منذ فترة.. ليجمعنا بيت واحد نستكمل حياتنا سويًّا فيه.. ولكن تعقدت الأمور كثيرًا بعد الحرب الأهلية، ومع ذلك ما زلت متفائلًا بأنّ كل شيء سيصير على ما يرام قريبًا.. هذا الوطن قوي، وستمرّ هذه الكبوة كما مرّ غيرها.. هذا الشعب يميل للسلام دائمًا مهما حاولوا تغييره..

مددت يدي ممسكًا وجهها الدافئ، ونظرت في عينيها:

- اشتقت إليكِ!

سعلت محرجة، محاولة إخباري بوجود والدها ووالدتها خلفها.. رأيتهما:

- كيف حالك يا شاهين بك..؟؟

لديّ لكم أخبار رائعة!

دخلت صالة البيت المتهالك.. وجلست على كرسي الصالون تحت صورة عمي إبراهيم قلقاس.. والثلاثة يتشوقون لسماع أخباري.. ابتسمت لهم فرحًا:

– الرئاسة قامت بتعييني مستشارًا لشئون الشباب!

– مُحال.. هذا طُعمٌ لي.. إياك أن تقبل يا بني!

قالها شاهين بعصبية شديدة.

– مهلًا يا شاهين بك.. من قال لك إن الرئاسة ضدك..؟؟

– في هذه الظروف لا تأمن لأحد أبدًا..

– لا.. هم معك في نفس الخندق ولا يفيدهم التضحيةُ بك.

– ضحوا وانتهى الأمر.. ولو طالوا رقبتي لسلموها للثوار قربانًا لرضاهم لتهدأ الأوضاع.

– من قال لك هذا؟؟

– اسمع يا آدم.. أنت مجرد وسيلة مكشوفة للوصول إليّ.

– أعلم ذلك.. ولكنهم يريدون حمايتك وليس تسليمك.

– هل أخبرتهم بمكاني؟؟

– كلا.. ولكنني جئت الآن لأصحبكم إلى هناك..

أخبرتهم أنكم تحت حمايتي، وستحضرون معي في الموعد المحدد.

– يا للمصيبة.. علينا الهروب من هذا المكان فورًا!

– اهدأ.. اهدأ لن يضروك بشيء..

– ساذج.. هيا يا ابنتي جهزي النقاب سريعًا لنرحل من هنا.

– إلى أين يا والدي؟؟

– لا أعرف..

اقتربتُ منه محاولًا تهدئته وإقناعه:

– أرجوك يا شاهين بك.. لنذهب للقصر الرئاسي ونحتمي بسطوتهم هناك.

– كلا.. لن أُجازف بحياتي وحياة زوجتي وابنتي..

ومن الآن وصاعدًا عليك أن تبتعد عنا.. سيصلون إلينا من خلالك..

ولن يهدأوا حتى تُعلق رقبتي هنا على باب هذا الميدان..

– حسنًا.. دعني أذهب إليهم، وأخبرهم أنني لم أجدكم، وأراوغهم حتى تطمئن.

– وما يدريك أنّ ذلك الهاتف الذي أتاك.. من رئاسة الجمهورية؟؟

– ماذا تعني؟؟

– أنت لا تعرف شيئًا عن السياسة وألاعيبها يا بني.. هناك احتمالات كثيرة:

إما أن يكون هذا المنصب وسيلة للإيقاع بي.. أو يكون وهميًا ومن اتصل بك يريد الوصول إليّ بأية طريقة، وراهنوا أنك تعرف مكاني ولا وجود

للمنصب من الأساس.. أو حقّا الرئاسة تعطيك المنصب بنية مساعدتي من خلالك، ولكن هناك من سيتتبعهم ويسبقهم لألقى حتفي على أيديهم.. بكل الأحوال هالك لا محالة..

– من سيفعل ذلك؟؟

– ومن أشعل فتيل تلك الحرب الأهلية الكاذبة؟؟

الناس لا تقتل بعضها يا آدم.. الناس تُقتل فقط..

هناك جهة ما تُخطط وتُنفذ.. تُحرك الجميع كعرائس ماريونيت

تشنقهم بحبالها كلما أرادت ذلك.. ولن أنتظر حتى أُشنق معهم

مهما حسنت النوايا..

كانت رضوى ووالدتها تقفان بعد أن انتهتا من ارتداء النقاب.. وناولت آخر لشاهين بك الذي قام بارتدائه سريعًا..

اغرورقت عيناي بالدموع ناظرًا إلى رضوى:

– وكيف لي أن أراكم مجددًا؟؟

– لن ترانا حتى تهدأ الأمور وتعود الحياة كما كانت، حينها فقط سنتصل بك.

– ولكن هذا ظلم.. أنت تفرق بيني وبين رضوى.. ما يدريني أنا متى تنتهي هذه الحرب الأهلية؟؟

سالت دموعي لتختلط بدموعها.. لحظات صعبة من الاختيار.. صمت مطبق تبارزه أعيننا جميعًا.. وكأنّ والدها يُخيرها بينه وبيني.. وبعد لحظات مرت كسنين.. تحركت رضوى ناحية والدها، ممسكة بيده ناظرة في عينيّ باكية:

– أراك على خير يا آدم!

– أهذا اختيارك الأخير؟؟

– لن أقوى على ترك والدي بهذه الظروف.

– أرجوك يا شاهين بك.. فلنفكر بحل آخر..

– وصلنا لمفترق طرق.. أدعُ الله أن يجمعنا مرة أخرى على خير هيا..

أسدل النقاب على وجهه.. وتحركوا خارجين من الشقة.. وكأنّ قلبي اقتلع من مكانه..

تلاقت أعيننا للمرة الأخيرة، وكأنّ كلًّا منا يخاف أنه لا لقاء مجددًا.. كلانا يدرك قسوة الوضع الراهن..

صرختُ:

– رضوى..

ارتميت في أحضانها أبكي.. كطفل يعانق أمه للمرة الأخيرة قبل وفاتها.. ضمتني بين ذراعيها بحنان ودفء لن أنساهما ما حييت.. نظرتْ في عينيّ بابتسامة خافتة متسللة على شفتيها:

– سنلتقي.. سنلتقي مجددًا..

كان والدها شاهين بك يجذبها من يدها.. فأنفلتُّ من أحضانها.. ابتعدت رضوى.

وكأن روحي تُسحب بعيدًا عني.. مهددًا بالموت حيًّا بقية حياتي..

هرعتُ إلى شرفة البيت أتابعهم من أعلى.. ذابوا وسط الثوار الهاتفين:

- يسقط يسقط حكم العسكر.

كان الرجل صاحب القرد ما زال يغني بنفس حماسه اللعين، والقرد لا يكف عن الرقص:

- الليل الليل الليل.. الليل يا ميمون.

كم هي قاسية هذه الحياة!.. كم هو قاسٍ هذا الوطن!.. قلبان كل ما يريدانه العيش بسلام وحب ولكن هيهات.. محكوم علينا بالموت بُعدًا.. وعودتنا للحياة مرة أخرى، مرهونة بانتهاء تلك الحرب الأهلية.. ولذلك سأحارب.. سأحارب من أجلها.. سأقتنص كل فرصة ممكنة للخروج من المأزق.. ستعلو كلمتي فوق رصاصهم.. سأذهب للقصر الرئاسي في الموعد المحدد، وأتولى المسئولية كاملة.. حتى وإن كان ذلك المنصب مجرد لعبة، يريدون من خلالها الوصول إلى شاهين بك.. سألاعبهم أنا الآخر بها.. لا بد من حلول وسطية يوافق عليها الجميع.. سلطة وثوارًا وإخوانًا وإسلاميين.. فجميعنا نتقاسم نفس الوطن الذي يوشك على الخراب.. سأُقاتل من أجل الوطن.. سأُقاتل من أجل حبي.. سأُصارع هذه الدنيا الظالمة.. سأناضل لأحافظ على ربيع عمري المهدد بخريف استثنائي..

خريف آدم.

الحل الأخير

(القصر الرئاسي – الثامن والعشرين من يناير ٢٠٥٠)

"لكِنْ بِحَسَدِ إبليس دَخَلَ الْمَوْتُ إِلَى الْعَالَمِ".

سفر الحكمة

هكذا كانت البداية الحقيقية لكل الشرور في الحياة الدنيا: الحسد، الغرور، التكبر وعشق الذات دون حدود.. كائن واحد.. لم تأت شريعة سماوية إلا وحذرت منه: إبليس.. وحرب واحدة متعددة الصور منذ بدء الخليقة: معركة إبليس مع بني آدم.. ذلك الكائن المغرور المتكبر الملعون في كل الأديان.. ودوامات متوارثة لا تنتهي من الكُره والتربص.. تلتهمنا عبر السنين.. حقد متأصل يضرب بجذوره من قديم الأزل.. ولن ينتهي حتى تفنى الدنيا بمن فيها.

"ثُمَّ يَأْتِي إبليس وَيَخْطَفُ الْكَلِمَةَ مِنْ قُلُوبِهِمْ لِئَلاَّ يُؤْمِنُوا فَيَخْلُصُوا".

إنجيل لوقا

"فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَهُمْ أَجْمَعِينَ".

القرآن الكريم

العديد من المواضع التي يحذرنا فيها الله من ذلك اللعين.. ولكن أليس من العقل أن نتوقف قليلًا، ونلتقط أنفاسنا في هذه الحرب، ونتساءل:

– ما الدافع وراء تلك الكراهية، المُشعِلة لكل الحروب بيننا عبر الأزمان؟؟

ألم يفكر إبليس ولو للحظة واحدة بعقلٍ وحكمة، ليوقف هذه الحرب، ويمنح نفسه هدنة؟.. مجرد هدنة يعيد فيها التفكير والتدبر؟ أكل هذا لأنه رفض السجود لآدم أبي البشر؟؟

أيحتقرنا لهذا الحد؟؟.. إبليس يدرك أنّ الله وحده لا شريك له.. ناطق بأنه لا إله إلا الله.. ومع ذلك مغضوب عليه حتى يوم القيامة.. يا له من أحمق! ألم يفكر مطلقًا في التوبة؟؟

ترى ماذا تكون العواقب إذا تاب إبليس، ورجع إلى الله طالبًا العفو والغفران؟؟

أو لنترك العنان لخيالنا أكثر وأكثر، ونعيد افتراض الأحداث منذ بدايتها..

وكأننا في عالم موازٍ كنا نتمناه.. سجد فيه إبليس لآدم طواعية، أينسف ذلك الصراع من جذوره؟؟ أكنا الآن نعيش في سلام وود؟؟ أننعم كلانا برضا الله إنسًا وشياطين؟؟

الإجابة لا.. حتى وإن كان إبليس عدمًا وذريته.. سيبقى الشرُّ بيننا إلى يوم البعث كما هو دون تغيير.. فشياطين الإنس أشد خبثًا وشرًا من الشيطان الأكبر.. تلك حقيقة لا مفر منها.. شياطيننا ألعن من إبليس ذاته.. ولو أنها كانت في نفس موقفه القديم.. لما رفضت السجود لآدم فقط.. ولكنها كانت ستقتله في الحال..

كانت تلك الفلسفة المغايرة تملأ وجدان نوح سقراط، رئيس الجمهورية الجديد ذي الخلفية العسكرية.. فمنذ تخرجه من الكلية الحربية، وهو واسع الاطلاع والقراءة.. يميل كثيرًا للتحليل الفلسفي للأمور.. كان يرى أن الأحداث الراهنة في البلاد ما هي إلا محاولات لشياطين الإنس للسيطرة على مقدرات الوطن.. لم يشك ولو للحظة، بأنّ الشعب المصري يُقاتل بعضه بعضًا.. بل هي اتفاقية سرية بين شياطين الوطن بالداخل والخارج، للتدمير التام.. لحرق الأرض كاملة، بعد خسارة الانتخابات الأخيرة لوعود مستقبلية ربما بتولي الحكم في وقت ما..

اعتقد أنّ الإخوان والجماعات الإسلامية هم آفة ذلك الوطن.. متاجرون بالدين.. أغبياء.. رُعُن.. خونة حتى النخاع.. على الرغم أنه يتفق معهم أنّ الحل الأمثل لنشر العدل في كل مكان بالعالم، هو الحكم لله عز وجل..

الالتزام بشريعته وقوانينه السماوية.. ولكنهم لا يريدون ذلك.. هم فقط يريدون السلطة..

غير أنه من المستحيل تنفيذ ذلك في هذا الزمان.. كان مقتنعًا أنه لا مكان حقيقيًّا للديمقراطية.. وأنّ الشعارات الفارغة بتطبيقها هي أوهام وسراب خادع.. لا وجود للديمقراطية في حكم الفرد للجمع.. لو أرادوها حقًا فهي حكم الله.. تلك هي الديمقراطية.. وإذ إنه من المستحيل تطبيقها.. فلنرتضِ إذن بالديكتاتورية العادلة.. كم هو قاسٍ أن تعرف الحقيقة!..

ولكن نوح سقراط كان صريحًا مع نفسه ومع من حوله.. وتلك الخصلات البيضاء المنتشرة في شعره لم تكن من فراغ.. فطوال سنين عمره الستين، وهو ينهل من بحور المعرفة والفلسفة على قدر المستطاع.. وكانت التنظيمات الإسلامية تعلم ذلك مسبقًا، وتدرك أن فوزه بالرئاسة إعلان لحرب، ستقضي عليهم جميعًا..

نوح سقراط.. العدو الأول للإخوان ومواليهم..

لم يتعود نوح على المواءمات السياسية وألاعيبها.. بل كانت كلماته الأولى لشعب مصر بعد فوزه بالانتخابات:

– شعب مصر العظيم.. لم أكن يوما كاذبًا ولا مُزيفًا للحقائق.. سأقولها لكم بكل إخْلاص وأمانة:

لا وجود للديمقراطية في العالم أجمع.

هم يُصدّرون لكم ذلك ويمارسون هم الديكتاتورية .

شعبي العظيم.. ماذا جنينا من الديمقراطية؟؟

منذ أربعين عامًا خرجتم منادين بها فماذا جرى؟؟

ألا ترون معي أنّ هذا الطريق معتِم ومليء بالوعود الكاذبة؟

سراب يدمر الوطن ويفتح عليه أبواب جهنم؟

أثبتت التجربة أننا لسنا مؤهلين للديمقراطية.. والآن أقولها لكم:

سأواجهكم بالحقيقة التي خاف من سبقوني الإعلان عنها صراحةً.

لن نستطيع تنفيذ الديمقراطية مهما حاولنا.. مُحال..

بلادنا تحتاج إلى ديكتاتور عادل.. هذا الزمان يحتاج للديكتاتورية.

العادلة.. أسأل الله أن أكون ديكتاتوركم العادل في هذه المرحلة.

والله ولي التوفيق.

ربما ساعدت خطبته تلك في اندلاع الحرب الأهلية.. كان صريحًا أكثر مما ينبغي.. فاجأ الجميع بها، وخرج عن النص المكتوب، والمتفق عليه قبل خروجه للشعب لأول مرة، بعد فوزه بالانتخابات.. لامه كل من حوله، بل وحمّلوه وزر تلك الحرب اللعينة..

انتهى نوح سقراط من صلاة الظهر بمكتبه برئاسة الجمهورية.. حالة عامة من التوتر بالقصر، وبدا الجميع شاحبي الوجوه، مرتعدين من عواقب

ما يحدث بالوطن تلك الأيام.. ففي الليلة الماضية، حاول بعض الثوار اقتحام القصر الرئاسي، ولكن قوات الأمن حالت دون ذلك بصعوبة بالغة، بالأخص وقد أصدر نوح أوامره، بعدم استخدام الرصاص مهما حدث مع الشعب.. تفرقوا بقنابل الغاز، وبصواعق كهربائية، وعصى الأمن المركزي، وقوات الالتحام الجسدي المباشر.. كانت ليلة عفراء وكأنها القيامة.. ساعات من الكر والفرِّ، انتهت بعدد لا حصر له من المصابين، معلنةً نجاح القوات في حماية القصر الرئاسي، وإثبات سطوة الدولة بشكل مؤقت في هذه الجولة..

كان نوح مرتبكًا للغاية.. الضغوط تزداد عليه كل ساعة.. طلبات دولية بتقديم استقالته، وتسليم البلاد لهيئة من الأمم المتحدة، لتعيد الأمور إلى نصابها حتى تمر الأزمة.. أخبرهم صراحةً بكل وضوح وحدّة، وأغلق بعدها كل الخطوط بوجوههم:

– لن أرحل عن مصر مهما كان.. ولن تطأ أقدامكم هنا إلا على جثتي!

اقترب عوف مختار رئيس أركان الجيش من نوح، مادًّا له يده بعد انتهائه من الصلاة:

– حرمًا.

– جمعًا إن شاء الله.. أخبرني كيف الأحوال اليوم؟؟

– في أسوأ حال.. بلغ عدد القتلى عشرة آلاف تقريبًا عدا خمسين ألف جريح على أقل تقدير.. لا وجود للشرطة مطلقًا.. الجيش انسحب من كل الميادين كما أمرت سيادتك..المظاهرات مستمرة وتنادي بإسقاط النظام..

وتجمعات كبيرة للمواطنين مجددًا حول القصر الرئاسي.. وتهديدات دولية بالتدخل العسكري تلوح في الأفق..

– لم يعد لدينا وقت للتردد.. هل اتصلت بكل الأسماء التي اخترناها سويًّا؟؟

– نعم وسيصلون جميعًا في الموعد المحدد، بعد ساعة من الآن.

نظر حينها إلى ساعته قلقًا:

– واقتربت ساعة الصفر.

– آخر ما كنت أتوقعه أن يكون طوق النجاة من تلك الأزمة ذلك العجوز!

قالها عوف مختار مبتسمًا هادئًا.

– نعم.. الحل الأخير للأزمة.. هو ذلك الرجل.. إبراهيم قلقاس!

.. أريد مقابلته قبل الاجتماع يا عوف..

– أمر سيادتك سأحضره إليك في الحال!

– كلا.. لنذهب نحن إليه.

– حسنًا.. تفضل سيادة الرئيس.

خرجا من مكتب رئاسة الجمهورية، يشقان طريقهما نحو المجهول.. نحو حل لا يخطر على البال.. نحو أسطورة إن تحققت لن يصدقها أحد.. نحو إبراهيم قلقاس.. العالِم المختفي منذ عشرين عامًا في ظروف غامضة.

***

غرفة منعزلة بالقصر الرئاسي، كانت الملاذ الأخير للعالِم إبراهيم قلقاس.. بعدما تلقت الرئاسة رسالة تعجبوا لها كثيرًا..

– أملك طوق النجاة لكم.. أنا في الولايات المتحدة الأمريكية.. أرسلوا من يتظاهر باختطافي بخطة محكمة.. إبراهيم قلقاس.

وصلت رسالته بعد اندلاع الحرب الأهلية في مصر بيومين.. جمعت المخابرات المصرية معلوماتها عن ذلك الرجل سريعًا، وسط خضم الأحداث المتلاحقة.. وبأمر مباشر من نوح سقراط، تم ترتيب عملية الاختطاف، بعد تحديد مكانه في الولايات المتحدة الأمريكية..

وعاد إبراهيم قلقاس لأرض الوطن، داخل صندوق للموتى، باسم شخص آخر.. وفُتح الصندوق بتلك الغرفة المنعزلة.. خرج منها قلقاس لأول مرة بعد غياب عشرين عامًا عن هذا البلد الحبيب.. وكأنّ القدر كتب له العودة لإنقاذه من أشد المحن.. كان في انتظاره حينها الرئيس نوح سقراط، ورئيس الأركان عوف مختار.. بعدما تمت المهمة بنجاح ساحق.

وقف قلقاس ناظرًا إليهما مبتسمًا:

– هل لي أن أدخن سيجارة؟؟

نظر نوح إلى عوف متعجبًا.. سارع عوف بإخراج سيجارة، وناولها لقلقاس وأشعلها له.. نفث منها نفسًا عميقًا مستمتعًا:

– أشكرك يا سيدي.

قطع نوح استمتاعه بحدّة:

– هل تُخبرنا بمعنى رسالتك لنا سيد قلقاس؟؟

– ألم تجمعوا عني معلومات سيدي الرئيس؟؟

اقترب منه عوف مختار متفرّسًا في وجهه:

– إبراهيم قلقاس.. واحد وستون عامًا.. اختفى فجأة منذ عشرين عامًا..

تاركًا رسالة لابن أخيه آدم، بأنه مضطر للغياب وألا يبحث عنه، ومبلغًا ضخمًا من المال، لم يكن لرجلٍ فقيرٍ مثله الحصول عليه.. خرج من مصر بطريقة غير شرعية.

– رائع.. ما زالت المخابرات المصرية تعمل على أحسن وجه ممكن!

قالها بسخرية شديدة ضاحكًا..

تعصب عوف كثيرًا لضحكاته وقاطعها:

– أمجنون أنت؟؟

– لو أنكم تتابعون عملكم جيدًا، لما حدثت تلك الحرب الأهلية!

قالها بصوت عال وفي حدّة مباغتة، ناظرًا في عيني نوح متحديًا له، وبادله نوح نفس التحدي..

– أنت تتحدث مع رئيس الجمهورية!

وانفجر قلقاس بضحكاته مجددًا دون توقف.. تبادل نوح وعوف نظرات غاضبة، وكأنّ أعينهما تعلن عن جنون ذلك الرجل.. ولكنّ شيئًا ما كان يستشعره نوح سقراط تجاه قلقاس.. شيئًا روحانيًّا لا يمكن تفسيره..

شعورًا غامضًا جعله يصبر على تصرفه الأحمق هذا.. صمتا حتى فرغ تمامًا من ضحكاته.. اقترب منه نوح كاظمًا غيظه:

– هل انتهيت؟؟

– نعم.. عذرًا سيدي الرئيس!

– ألن تُخبرني ما هو طوق النجاة؟؟

– سأخبرك بكل شيء.. ولكن قبل أن أبدأ عليكما بالإنصات إليّ جيدًا..

ما سأقصه عليكما خارج حدود العقل والمنطق.. وعليكما بتصديقه. لا لشيء.

إلا لأنه حقًّا طوق نجاتكما الوحيد، ونجاة هذا الوطن..

– كلنا آذان صاغية!

تحرك إبراهيم قلقاس بينهما ناظرًا إليهما..

نفث من سيجارته نفسًا آخر وأطلقه في الهواء..

تحدث وكأنه يقصّ حكاية من ألف ليلة وليلة:

– يُحكي أنه في قديم الزمان.. تولى جحا مُلك البلاد فجأة..

وكان له جار اشتهر بالسرقة والحرابة.. يدعى بهلول.. ملأ الحقد قلبه:

جحا يحكم البلاد؟!!.. هيهات.. فخرج في الأسواق ونادى في العباد:

يا أهل البلاد.. جحا سينهب العتاد.. ويغرق مدينتكم..

سيسجن أولادكم ويستحل نساءكم.. جحا كافر بليد..

فهبّ العامة وملأوا الأسواق والطرقات..

وخرج جحا يخطب فيهم:

يا قوم.. يا إخوتي في الله.. لقد آتاني الله مُلكًا لا ينقطع.. هبة منه وحده.. وأنا واحد منكم.. لن أمسكم بسوء فعودوا إلى أعمالكم يصلح حالكم.. فوالله لو قتلتموني، لن أترك مُلكه ما حييت حتى تهنأ البلاد..

فالتفّ الناس وراء جاره اللعين..

وقف يناديهم للقضاء على جحا العنيد.. سارق قديم ولكنه شجاع حكيم.. هكذا وصفه العامة.. التفوا حوله وثاروا في كل مكان.. صرخوا في الميادين:

- عاش بهلول قائد الثورة!

- عاش بهلول قائد الجماهير..

واحتدم الصراع.. بين بهلول وجحا..

وبقى الحال هكذا، حتى ينجح أحدهما في القضاء على خصمه اللعين..

وإلى الآن يفشلان..

من خواطر العالِم إبراهيم قلقاس

يناير.. ٢٠٥٠

الحرب الأهلية.. القاهرة

– يبدو أننا نضيع وقتنا مع هذا الرجل سيادة الرئيس!

قالها عوف مختار متذمرًا غاضبًا.. بينما اقترب نوح من قلقاس مستفسرًا:

– ماذا تقصد بهذه الحكاية؟؟

– أعرف أنك على قدر كبير من الذكاء.. وستُدرك ما أرمي إليه.

ابتسم قلقاس لنوح، ثم نظر ناحية عوف بتحفز وسخرية.. التفّ حولهما كبهلوان طاعن في السن سريع الحركة، بصوت استعراضي وكأنه يقدم أحد عروض السيرك:

– والآن سيبدأ العرض في الحال.. سيداتي آنساتي سادتي.. أيها الباحث عن الحل والخلاص.. ألم تفكر يومًا بوقف الزمان؟؟

ألم تتمنّ العودة للوراء، وتغيير قراراتك التي اكتشفت بمرور الوقت أنها خاطئة؟؟

ألم تتشوق لمن ماتوا ولو للحظة، تعانقهم فيها؟؟

ثلاثة عشر مليار عام تاريخ هذا الكون الكبير..

والإنسان منذ ظهوره.. خليفة الله على الأرض، يمر بأزمات لا حصر لها:

حروب ومجاعات، وفتن وصراعات، وموت مبرر وغير مبرر.. كم من المصائب نتعرض لها الآن، ونراها قاتلة كفيلة بإبادتنا جميعًا..

ولكن من سيأتون بعدنا سيرونها بسيطة وسهلة الحلول!

كم مستحيل يمرّ مع الزمن!

كم من الأمراض المميتة بالعصور السابقة، انتهت بدواء اخترعه أحدهم بعد فترة!

ألم تسمعوا عن الطاعون؟؟ يقولون إنّ أمريكا كان سكانها الأصليون هنودًا حمرًا..

تسعين مليون هندي أحمر تم اغتيال أغلبهم بوباء الطاعون.. كان الأمريكان يرسلون لهم أغطية تقيهم من البرد، محملة بذلك الوباء، حتى قامت أمريكا على جثثهم..

قاطعه نوح بحدة متناهية:

- إن لم تنتهِ عن تلك الألغاز سنأمر باعتقالك في الحال، وإيداعك مستشفى للأمراض النفسية والعصبية!

توقف قلقاس حينها عن طريقته البهلوانية، وتغيرت ملامح وجهه إلى الجدية:

- مهلًا سيدي الرئيس!

اقترب منه مبتسمًا واثقًا:

– ما أريد قوله: لو أننا أصلحنا ماضينا، لعشنا حاضرنا، وضمنّا مستقبلًا مشرقًا دون صراعات.. ولن ينتصر جحا على بهلول، إلا إذا انتهى بهلول من الوجود.

صفّق له نوح مجددًا مستهزئًا:

– أهذا ما أرسلت لنا لأجله؟؟

– أنا لا أفهم شيئًا!

قالها عوف مختار ناظرًا إلى نوح، فأشار له مُوضحًا:

– يتحدث عن التنظيمات الإسلامية، ويخبرنا أنّ الحل في القضاء عليها نهائيًا!

هذا هو طوق النجاة المزعوم..

– قد فهم جحا الكلام..

قالها قلقاس ضاحكًا مستهزئًا!

– اسمح لي سيادة الرئيس، باعتقال ذلك المخرّف المجنون.

– مهلًا يا سادة.. أتسخرون من طوق النجاة الوحيد؟؟ آه لو تعلمون!!!! إن استمر الوضع هكذا، ستتحملان وحدكما سقوط هذا الوطن..

– دعه يا عوف .. فلنستمع له حتى النهاية!

– أعتقد أنكم تعرفون أنني كنت مُنشغلا بتجاربي العلمية حول سرعة الصوت والضوء ولطالما حاولت بكل طاقتي الوصول لنظرية جديدة تغير العالم بهذا الشأن، حقيقة.. لم أكن الوحيد المفكر بذلك..هناك من اقتاد طائرة واختفى في منطقة مثلث برمودا.. وهناك من حاول البحث في الفضاء عن أكوان أخرى.. وهناك من أفنى عمره في تجارب مستحيلة النتائج.. حاولوا جميعًا وفشلوا، ولكن المفاجأة أنني حاولت ونجحت!

– ماذا تعني؟؟

عاد مرة أخرى إلى طريقته البهلوانية:

– في نهارٍ كهذا منذ عشرين عامًا توصلت لطريقة أخترق بها الزمن!

– كيف؟؟

– لم أصدق نفسي في البداية.. استطعت بتجربة بسيطة العودة خمس ساعات للوراء! بلّ وتغيير ما جرى خلال الخمس ساعات، وبالتالي تغيير النتائج المستقبلية.

– يبدو أننا أضعنا وقتنا، بالاستماع إلى ذلك العجوز اللعين!

قالها عوف مختار ساخرًا من قلقاس.. نظر إليه بحدّة.. ولكن نوح سقراط كان مهتمًا بما يرويه، فقاطعه:

– مهلًا يا عوف.. دعه يكمل حديثه.. تفضل يا قلقاس! أكمل ما تريد قوله.

نظر إبراهيم قلقاس إلى عوف، بغضب مكبوت:

– هذا ما كنت أتوقعه، لو أنني توجهت للسلطات المصرية باختراعي حتى ترعاه.. ما كنت سأجني سوى الإهانة والاستهزاء!

– أعتذر لك!

– تواصلت حينها مع مؤسسة أمريكية لدعم المخترعين.

وخلال أسبوع واحد كان بمنزلي مندوب لهم.. اتفق معي على كل شيء.. لم أنسَ حديثه لي أبدًا.

تغيّرت نبرة صوته، وكأنه يقلد صوت هذا المندوب الأمريكي:

– سيد قلقاس.. سنتكفل بمشروعك للسفر عبر الزمن حتى النهاية.. ولك منا كل الدعم المادي المطلوب ولكن عليك بالعمل على هذا المشروع بعيدًا عن هنا.. ستسافر معي دون أن يعرف أحد بذلك.. كل المسموح لك.. ترك رسالة لمن تحب بأنك سترحل بعيدًا ولا تعرف متى ستعود..

امتلأت حينها عيناه بالدموع، وكأنه تذكّر تلك اللحظات القاسية، التي أجبرته على الرحيل، ليحقق حلمه المنشود..

– حاولت كثيرًا إقناعه أنْ أخبر آدم ابن أخي بسفري وبمكاني، لأطمئن عليه من وقت لآخر، ولكنه رفض بشكل قاطع..

لم أقوَ على المقاومة، فقد كان حلمي مبارزًا قويًا لتعلقي بالوطن وبمن فيه. وأعلم أنه سينتصر للنهاية.. وافقت على الفور وسافرت..

خرجت من مصر بجواز سفر دبلوماسي... وعشت مع تجاربي وأبحاثي كثيرًا.. وبعد سنوات من العمل الشاق والجاد نجحت.. وأصبح لديّ تقنية حديثة للانتقال عبر الزمن.

- كيف ذلك؟؟

- الفكرة ببساطة أن تصل الطائرة لارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم، وسرعة تسعمائة كيلو متر بالساعة.. حينها أقوم بجهاز شديد الحساسية بيدي أشبه بالهاتف المحمول، -متصل بمحرك الطائرة بموجات إشعاعية شديدة التعقيد- بزيادة سرعة الطائرة المجهزة لتتعدي سرعة الضوء، وبعدها أستطيع توجيه الطائرة للتاريخ والساعة التي أريد مُتحكمًا في تلك السرعة..

- ما هذا الهراء؟؟

قاطعه عوف مُتأففًا بعصبية.

نهره نوح سقراط بشدة:

- صه يا عوف.. إياك والمقاطعة مجددًا.

أخبرني يا قلقاس.. هل نجحت حقًّا بما تقول؟؟

- نعم وتغيّر التاريخ بعدها!

- كيف ذلك؟؟

- تلك المؤسسة الراعية لتقنية السفر عبر الزمن، لم تكن مؤسسة أمريكية!

- إسرائيلية؟؟

قالها نوح متوقعًا.

– كلا.. ليس لهم انتماء: لا وطن.. لا دين.. لا شيء سوى المال.. المال فقط!.

– من هم إذن؟؟

– التنظيم.

– أي تنظيم؟؟

– هكذا اسمهم.. مجموعة كبيرة من أصحاب رؤوس الأموال بالعالم أجمع..

التنظيم.. أخطبوط له أذرع في كل دول العالم.. أكبر كيانات اقتصادية.

مصانع، وقنوات إعلامية، وجرائد، وحكومات تابعة لهم.. يخضعون لخططهم.

حتى وإن كانوا يجهلون ذلك.. التنظيم يحكم العالم أجمع.. هذا ما أدركته بعد حين.. ومَن يخرج عن طوعهم يُقتل.. وبالأخص من اقترب كثيرًا مثلي..

كنت ألوم نفسي في اليوم ألف مرة، لوضع هذا الاختراع بين أيديهم.

– لماذا؟؟

– سأخبرك شيئًا بسيطًا استخدموا اختراعي فيه..

أتعرف أنّ الرئيس السابق محمد أنور السادات نجا من محاولة اغتياله؟

– ماذا؟؟

برقت أعينهما غير مصدقين ما يستمعان إليه!

– نعم نجا.. وتم القبض على منفذي الاغتيال وأُعدموا

وأكمل السادات حكم مصر حتى عام ١٩٩٠، واستقال بعدها من الرئاسة لظروف صحية.. وخلفه محمد حسني مبارك.. ومات على فراشه ببيته عام ٢٠٠٠..

– ما تقوله خارج المنطق والعقل.. لا يمكن أن يُصدّق!

– انظرا معي إلى هذا التسجيل المصوّر بهاتفي..

أخرج إبراهيم قلقاس هاتفًا محمولًا بدون خط.. ألقاه فور اختطافه كي لا يعثروا عليه.. أدار تسجيلا مُصورًا لافتتاح دورة الألعاب الأفريقية عام ١٩٩١.. ولقطات للمطرب الراحل عمرو دياب، وأغنيته: بالحب اتجمعنا..

بُهت الاثنان حينما شاهدا الرئيس السادات في المدرجات، جالسًا مبتسمًا..

– كان ذلك الحفل بعد تقديم استقالته بعام واحد..

– مُحال.

– أرسل التنظيم رجاله في حادث الاغتيال، وأتمّه رغمًا عن التاريخ!

ومات السادات حينها.. وتغير التاريخ!

– يا إلهي.. ما هذا؟؟ أستغفر الله العظيم!

قالها عوف مختار مستنكرًا حديثه تمامًا..

قاطعه نوح، وقد اقترب من قلقاس بعصبية وأمسكه من قميصه بحدة:

– يا كلب يا مجرم.. لو أنّ الأمر بيدي، لقتلتك الآن دون تردد!

– دعني وشأني.. ليس ذنبي.. لم أكن على دراية بنواياهم، كنت مضطرًا لفعل ذلك حتى لا أموت..

– وأي مصائب أخرى قمت بها باختراعك اللعين؟؟

– حوادث كثيرة.. سقوط بُرجي التجارة العالمي بأمريكا.. حرب العراق.. قتل القذافي.. قتل عمر سليمان.. تنحي مبارك عن الحكم..

– هل تعني أنه في الحقيقة لم يسقط البرجان.. ولم تدُر الحرب بالعراق.

ولم يُقتل القذافي ولا عمر سليمان، ولم يتنحَ مبارك عن الرئاسة...؟؟

– نعم.. أتذكر ذلك الخطاب المثير للمشاعر، الذي ألقاه مبارك أثناء ثورة ٢٥ يناير عام ٢٠١١؟؟..

حينما قال:

قلد قلقاس حينها الرئيس مبارك بنفس طريقته:

"هذا الوطن العزيز هو وطني، فيه عشت، وحاربت من أجله، وعلى أرضه أموت، وسيحكم التاريخ عليّ وعلى غيري، بما لنا أو علينا".

– نعم أذكره جيدًا.

– تأثرت الجموع بهذا الخطاب كثيرًا، وفي الحقيقة انتهت ثورة يناير هنا، وانفضّ الميدان، وعادت الحياة كما كانت، مع وعود حقيقية بالإصلاح.

– مُحال..

– موقعة الجمل الشهيرة من صنع التنظيم! عادوا بالزمن، ليشعلوا الأوضاع بعدما هدأت رغمًا عنهم.

– اللعنة على هذا الاختراع!

– والآن.. لم أعد أحتمل أوزارًا أكثر من ذلك.. أموت كل يوم، وأنا أتابع التاريخ يتغير هكذا.. وبلادي تغوص في مستنقع الهلاك والخراب يومًا بعد يوم.. وهذه الحرب الأهلية التي ستقضي على كل شيء.

لهذا السبب أرسلت إليكم خطابي.

ساد صمت مطبق بين الثلاثة.. فكر نوح سقراط كثيرًا قبل أن يقطع صمتهم.. هل يصدق تلك الترّهات التي تلفّظ بها قلقاس؟؟ هل حقًا يتغير التاريخ باختراعه المزعوم؟؟ وإن كان.. ماذا بيده ليوقف ذلك؟؟ اقترب منه ناظرًا في عينيه:

– إن افترضنا أنني صدقتك.. الاختراع معهم.. ما فائدة وجودك معي الآن؟؟

– التنظيم لا يعرف أهم جزء في التقنية.. كيفية ضبط جهاز التحكم بسرعة الطائرة ليصل في توقيت وتاريخ محدد مسبقًا.. أنا فقط مَن يملك هذا السر.. وربما لهذا السبب أنا على قيد الحياة إلى الآن!

– أتعني؟؟

– إنهم يستطيعون استخدام تقنية التنقل عبر الزمن، دون التحكم في بُعدها الزمني.. وقد لا يعودون مجددًا إن حاولوا ذلك لزماننا..

– ولكن ماذا سيفعلون بعد اختفائك؟؟

– لا يهمني.. لن أترك وطني يُمحى من خريطة التاريخ..أعرف جيدًا أنكم المُنقذ الوحيد للوطن في هذه المرحلة الحرجة..الآن أنا بين أيديكم واختراعي ملك يمينكم.. وليكن أول اهتمامكم هو محو عدوكم اللدود من التاريخ.. محو بهلول الجار اللعين.. حتى يحكم جحا البلاد، ويسيطر على العباد..

وانتهى اللقاء الأول بين رئيس الجمهورية، والعالم العائد إبراهيم قلقاس.. لقاء سيغير مجرى التاريخ المعاصر.. هكذا وصفهَ نوح سقراط في جلساته السرية العديدة، للخروج من الأزمة.. نجح في تجهيز خطة محكمة، إن حالفه الحظ بنجاحها، سيُكتب اسمه بحروف من نور، في سجل بطولات هذا البلد..

لم ينمْ نوح طوال شهر بأكمله، مشرفًا على خطوات خطته أثناء تجهيزها، ووضع كل الاحتمالات الممكنة.. وكذلك قلقاس.. قضى أيامه ولياليه في

معمل سري بالقصر الرئاسي مجهز بمواصفات خاصة طلبها، ووفرها له نوح على الفور.. واليوم وقد انتهى كل شيء.. أبلغ قلقاس الرئيس، أنه على أتم الاستعداد لبدء تنفيذ الخطة الموضوعة.. خطة إنقاذ وطن طمع فيه الجميع..

مصر!

***

كنت مُرتابًا بشدة في هذا اللقاء المزعوم بقصر الرئاسة.. ولكن أغلب مخاوفي زالت، حينما وجدت اسمي مدونًا بسجل الأمن، على بوابة القصر الرئاسي بالعاصمة الجديدة..

– آدم فؤاد قلقاس.. تفضل!

ودخلت القصر وسط تربص المتظاهرين، المُبعدين بأسلاك شائكة حول القصر في كل مكان.. كانت بانتظاري سيارة بعد البوابة مباشرة، ركبتها وقادتني إلى مكان المقابلة.. تحركت ما يقرب من عشرة كيلومترات، حتى وصلت القصر الرئاسي.. وبالطريق عدد لا حصر له من قوات الأمن المركزي.. وكأنها قلعة محصنة ضد الأعداء.. لم أتخيل مطلقًا أنّ مساحة القصر وما حوله بهذا الاتساع.. صاحبني رجلا أمن ضخما الجثة مرحبين بي:

– مرحبًا سيد آدم.. سيادة الرئيس بانتظارك.. تفضل معنا.

أدركت حينها حجم وأهمية والد رضوى حبيبتي "شاهين بك مراد".. هذا هو التفسير الوحيد لهذا المنصب، فلم أكن سياسيًا يومًا ما..

جلست في أحد المكاتب الفخمة، وانتظرت ما يقرب من خمس عشرة دقيقة.. احتسيت فيها قهوتي كاملة.. دخل بعدها رجل آخر مرحبًا بي:

– مرحبًا سيد آدم.. عذرًا للتأخير.. فلتتفضل معي الآن.

تحركت بصحبته.. مشينا في طرقات طويلة، وسط عدد من رجال الأمن بكل مكان تقع عليه عيناي.. فتح أحد الأبواب ودخلنا..

قاعة كبيرة ممتلئة بالناس.. كقاعة مجلس الشعب.. مقاعد مُرتبّة بشكل نصف دائري، ومنصة عالية تتقدمها.. شيء غريب.. تساءلت متعجبًا:

– مَن هؤلاء يا سيدي؟؟

– تفضل بالجلوس هنا، هذا مقعدك وستعرف كل شيء.

كان الجميع مُتهامسًا.. اقتربت من المقعد، وتفاجأت بصديق عمي عزام عزام أمام عيني..

كان جالسًا في المقعد المجاور.. تبادلنا نظراتنا بحيرة وتعجب:

– عزام؟؟

– آدم؟؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟؟

– استدعوني لمنصب مستشار الرئيس لشئون الشباب.

– أنت؟؟ كيف ذلك، وأنت بعيد كل البعد عن أي نشاط سياسي؟؟

– أعتقد أنّ الأمر له علاقة بشاهين بك والد رضوى.. ولكن أنت أيضًا، لم أعهدك سياسيًا يومًا ما!

– أخبروني أنني سأتولى وزارة البحث العلمي الفترة المقبلة.

- يبدو أنّ هناك لغزًا وراء ذلك..

- أمرٌ مثير للريبة.

طالعتُ وجوه الناس بهذه القاعة.. أعرف بعضهم جيدًا.. فها هو الممثل الشهير أنور أبو النجا، صاحب قضية الشذوذ الجنسي المشهورة قبل عامين.. والسيد إسماعيل شمروخ، رئيس النادي الشهير سليط اللسان.. والراقصة دندشة، صاحبة المقطع الجنسي المُسرّب بأحد أهم قضايا الفساد الحديثة، ونالت بعدها شهرة واسعة في عالم الفنّ والفضائيات، وفُتحت لها كل الأبواب المغلقة، وكأنّ العُهر أصبح بوابة العبور في هذا الزمان..

وفي آخر مقعد رأيت عمرو حليم مذيع الدولة الأول.. هكذا أطلق عليه عوام الشعب.. وله العديد من الآراء المتضاربة، وجميعها يصبّ في مصلحة السلطة بالمقام الأول.. وبجواره مجدي فلفل، مطرب المهرجانات الأول، بعدما نال شهرة واسعة في السنوات الأخيرة، جعلته يتربع على عرش تلك الأغاني الهابطة.. وباقي الوجوه لم أعرفها..

ولكن ما الأمر الذي يجتمع فيه هؤلاء بالأخصّ في مكان واحد.. كنت حائرًا للغاية ولا أجد أي تفسير..

نظرت ناحية عزام، محاولًا إيجاد مصطلح مناسب لما أشعر به:

- يبدو أن...

قطع حديثنا أحد رجال الأمن، معلنًا قدوم رئيس الجمهورية:

- السيد نوح سقراط رئيس الجمهورية..

دخل نوح سقراط بصحبة الأمن الخاص به.. كان بجواره شخص لم أصدّق عيني حينما رأيته.. إنه عمي إبراهيم قلقاس..

- عمي!!

وقف الجميع بالتزامن مع موسيقى النشيد الوطني المصري.. ساد الصمت وتلاقت أعيننا لأول مرة بعد عشرين عامًا.. تساقطت دموعنا فرحًا باللقاء.. وددت لو قفزت قبل انتهاء الموسيقى بأحضانه.. كان عزام بجواري غير مصدق لما يرى.. تسمّرت في مكاني.

وانتهت الموسيقى وأشار نوح سقراط للجميع بالجلوس.. لم أستطع الجلوس.. بقيت في مكاني لا أقوى على الحركة، أُغالب دموعًا ظلت حبيسة طوال عقدين من الزمان..

ابتسم نوح وأشار لقلقاس بجواره:

- يمكنك مصافحته سريعًا.

تحرك إبراهيم قلقاس هابطًا درجات المنصة ناحيتي.. لو أنّ للقلوب صوتًا لسمع الجميع صرخات قلبي فرحًا باللقاء.. وكأنه ينادي بكل قوته:

- لماذا تركتني؟؟ اشتقت إليك!

ارتميت في أحضانه وبكيت.. امتزجت دموعنا سويًا.. قبّل وجنتي بحنان لم أجد له مثيلًا بدنياي.. همس لي:

- كيف حالك يا بني؟؟

لم أستطع الرد.. أجهشت بالبكاء أكثر وأكثر..

نظر قلقاس إلى عزام الممتلئة عيناه بالدموع هو الآخر:

- اشتقت إليك يا صديقي العزيز!

قطع حينها نوح سقراط تلك الوصلة الحميمية، للقاء مفاجئ غير متوقع بالمرة..

- السيد إبراهيم قلقاس.. فلتتفضل هنا بجواري..

تركني عمي، وصعد للمقعد المجاور للرئيس نوح.. وكان بجوارهما السيد عوف مختار رئيس الأركان.. اتكأ نوح سقراط على كرسيه رامقًا إيانا جميعًا:

- مرحبًا بكم جميعًا في هذا اللقاء المفاجئ..

أعلم أنّ في أذهانكم أسئلة لا حصر لها.. سأجيبكم عليها

ولكن في البداية لنشاهد هذا الفيلم سويًا..

أشار حينها إلى عوف مختار، فأُظلمت القاعة، وانسدلت شاشة كبيرة بجوار المنصة، وبدأ يُعرض عليها فيلم وثائقي.. مجموعة من اللقطات المختارة بعناية عن مصر ومعالمها، على خلفية موسيقية وطنية حماسية..

لقطات لثورة يوليو عام ١٩٥٢، ورحيل الملك فاروق.. مشاهد حماسية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والسادات وانتصار أكتوبر عام ١٩٧٣.. لقطات للجنود المصريين يعبرون قناة السويس..

يتبعها مجموعة أخرى من اللقطات، لمن تبعهم من الرؤساء حتى نوح سقراط.. يتخللها أهم الأحداث التي مرّت على الوطن، طوال تلك الفترة الزمنية التي تناهز مائة عام.. وبعض الشخصيات الفنية الشهيرة: كعبد الحليم حافظ، وإسماعيل ياسين، وعادل إمام، وشادية، وغيرهم..

وانتهى الفيلم التسجيلي.. وأُضيئت القاعة مجددًا..

كانت الدموع في عيني نوح سقراط واضحة للعيان، حاول إخفاءها ليبدأ حديثه:

– مصر.. أكبر وأعرق دولة في العالم.. مصر مقبرة الغزاة.. دولة لن تنتهي حتى تقوم الساعة.. مصر مستهدفة ليس فقط منذ إعلان الجمهورية وانتهاء الملكية ولكنها كانت مطمعًا للغزاة في كل العصور.. ومهما طال الزمن.. مصر تنتصر.. تعرفون جيدًا ما تعاني منه البلاد هذه الأيام.. يمر الوطن بأحلك الظروف، واجتمع الأعداء ليقتلعوا جذورنا ويكتبوا شهادة وفاة هذا البلد! ولكن هيهات.. أعرفكم أولًا على العالم إبراهيم قلقاس.. صاحب طوق النجاة الوحيد، للخروج من الأزمة الحاليَة!

أشار نوح ناحيته، بينما ملأت ابتسامة الواثق المنتصر وجهه..

– وبكل فخر أنبئكم أننا سنشترك جميعًا للخروج من تلك الحرب الأهلية الكاذبة، وستُكتب أسماؤكم بحروف من نور في تاريخ بلدكم.

سادت الهمهمات القاعة وروادها.. فالجميع مثلي لا يفهمون أي شيء.. ناشدهم نوح سقراط الهدوء:

– اهدأوا.. لم ينتهِ حديثي بعد!!

لازم الجميع الصمت سريعًا..

تنهد نوح مدركًا استحالة مهمته بإقناعهم بما هم مقبلون عليه، لخروجه عن المنطق والعقل.. ولكن لا مفرّ من توضيح جميع الأمور أمام أفراد عمليته المختارين بعناية..

– الجمع الكريم.. قمت باختياركم بعناية فائقة:

مائة فرد من خيرة الوطنيين للعملية السرية (صقر)

كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض.. بالأخص أولئك المعروفون منهم بالفساد والتدني الأخلاقي!

– لا تتعجبوا.. أعلم ما تفكرون به.. كلٌ منكم له دور في العملية (صقر).. فلا تحكموا بالظواهر مطلقًا..

قاطعه أحد الشيوخ الشباب المدعو عيسى ممتاز.. ذلك الشيخ المتمرد المفصول من وزارة الأوقاف، بعد خروجه عن السرب في خطب الجمعة بالمسجد المُعين إمامًا له.. وبعد خطبته الشهيرة عن يأجوج ومأجوج، التي أعلن فيها وبكل وضوح أنّ هؤلاء القوم خرجوا، منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، من وراء السد المانع لهم، واندمجوا بين الناس.

وأثبت بأدلته وبراهينه العقلية، أن قوم يأجوج ومأجوج، ليسوا سوى اليهود الأوربيين المنتشرين في كل مكان بالعالم.. وما كان من وزارة الأوقاف حينها، إلا أن قامت بفصله ومنعه من الخطابة..

هبّ عيسى ممتاز بعصبية واقفًا، وقال:

– وما دوري أنا في عملياتكم العسكرية، سيدي الرئيس؟؟جئت إلى هنا لتولي منصب وزير الأوقاف.. ويبدو أنها حيلة ماكرة لتوريطي في أمر آخر! وأنا أرفض الـ..

قاطعه نوح سقراط:

– صبرًا يا شيخ عيسى.. صبرًا.. الوطن الآن لا يحتاج المناصب!

مصر تحتاج الإنقاذ، وأنت واحد ممن سيخاطرون بحياتهم لأجل ذلك!

– ولكنني لا أريد الموت!

قالها عمرو حليم المذيع متوترًا.. وتبعته دندشة الراقصة، ثم مجدي فلفل مطرب المهرجانات، فإسماعيل شمروخ رئيس النادي الشهير، وأنور أبوالنجا الممثل وغيرهم..

– ولا أنا.

– ولا أنا.

– ولا أنا.

– ولا أنا.

– لا أحد منا يريد الموت!.

ساد الهرج القاعة وملئت وجوههم بالعصبية والاعتراض، وكأنهم يريدون الانسحاب من ذلك الاجتماع بأية طريقة، بينما بقي البعض صامتين يترقبون..

لم يستطع نوح إيقاف توتر البعض، ولا رفضهم المقنع لعمليته المزعومة، دون حتى أن يعرفوا تفاصيلها.. صرخ فيهم عوف مختار رئيس أركان الجيش بحدّة متناهية:

– صه.. اجلسوا في أماكنكم جميعًا.. قول واحد لا تغيير فيه.. نعرف عنكم ما يجعلكم تقضون باقي حياتكم وراء القضبان.. ويمكنكم الانصراف الآن.. لن نجبر أحدًا على البقاء.. ولكن عليكم أن تتحملوا تبعات ذلك.. فقد صدرت بحقكم أوامر اعتقال بتهم تكدير الأمن العام، ومحاولة الانقلاب على السلطة الحاكمة، وقائمة من التهم تؤدي بأصحابها إلى حبل المشنقة.. هذا بالطبع بالنسبة للمعترضين. أما الموافقون.. المضحون.. الوطنيون فوسام من الدولة وحياة كريمة إضافة إلى ذلك طبعًا العيش بسلام، في بلد آمن وهادئ كما نتمناه دائمًا، ومبلغ من المال يؤمن باقي حياتكم جميعًا..

ساد الصمت القاعة بأكملها.. وقفتُ مكاني موجهًا حديثي للرئيس نوح مُعلنًا تصدري لصفوف الوطنيين الشرفاء:

– سيدي الرئيس.. كلنا فداء هذا الوطن.. ولكن اسمح لي ببعض التوضيح:

..ما هي العملية صقر؟؟

وما علاقة عمي بها.. ولماذا نحن بالتحديد؟؟

وقف حينها نوح واتجه ناحيتنا.. تفحص الجميع مُنتظرًا اعتراض أي منا، ولكن الجميع لاذ بالصمت المرتعش.. فلا حل آخر أمامنا.. فالخراب وراءنا، والسجن من أمامنا.. حاول جاهدًا إيجاد كلمات مناسبة يشرح بها تلك العملية الخيالية.. العملية صقر.. وقف في منتصف الغرفة.. كنا ننظر إليه جميعًا بتوجس وترقب ممتزجين..

تنهد نوح:

– العملية صقر.. أول عملية وطنية من نوعها ستجرى على أرض مصر! لن أخفي عليكم أيًّا من تفاصيلها.. فجميعنا شركاء في هذا الوطن.. ورغمًا عن أعدائنا سينجو بأيدينا. مفتاح هذه العملية السرية، مع هذا الرجل الجالس أمامكم على المنصة.

أشار حينها ناحية عمي إبراهيم قلقاس فنظرنا إليه..

كانت ملامح الفخر تملأ وجهه!

استكمل نوح حديثه فالتفتنا إليه سريعًا:

– العالم إبراهيم قلقاس.. قامت قوات أجنبية مجهولة المصدر باختطافه طيلة عشرين عامًا.. استغلوا اختراعًا عجيبًا توصل إليه بعد عناء، في تدمير بلادنا، بل ووطننا العربي بأكمله.

ولكن القدر أراد لنا اكتشاف تلك اللعبة، قبل فوات الأوان. واستطاعت مخابراتنا العامة، استرجاع عالمنا الجليل مرة أخرى ليكون بدوره، السحر الذي سينقلب على الساحر بإذن الله!

– عذرًا سيدي الرئيس.. ما هذا الاختراع، الذي دمروا به وطننا العربي؟؟

قالها الشيخ عيسى ممتاز متعجبًا.. لحظات مليئة بالتوتر والتوجس تراهما على وجوه الجميع.. كتم نوح سقراط أنفاسه، وألقى في وجوههم الحقيقة كما هي..

تقنية حديثة للتنقل عبر الزمن!

ساد الصمت للحظات طويلة.. نظرنا لبعضنا البعض متعجبين بشدة.. وانفجر الممثل أنور أبو النجا بالضحك في هيستريا لا تتوقف.. وانتقلت عدوى ضحكاته للجميع.. فضجت غرفة الاجتماعات بضحكاتنا الممتزجة.. بينما حافظ نوح على هدوئه المُصطنع.. انتظر كثيرًا حتى فرغنا من نوبة الضحك الفجائية.. وساد الصمت مرة أخرى.. قطعه نوح كعادته:

– أعلم أنّ العقل ينكر ما أقول تمامًا.. ولكن هذه حقيقة استغلها أعداؤنا ضدنا، وعلينا استخدام نفس السلاح للدفاع.

أمسك إبراهيم قلقاس دفة الحديث، مُدافعًا عن غروره العلمي:

– عذرًا سيد نوح.. ليّ كلمة..

– تفضل

– آفة ذلك المجتمع هي السخرية من كل شيء في العالم الغربي يدعمون الفاشل حتى ينجح.. وهنا نحارب الناجحين حتى يفشلوا.. الآن أنتم لا

تصدقون أنّ هناك تقنية تنقلكم عبر الزمن.. وبعد ساعة من الآن ستقدمون القرابين لي بمحراب علمي، عسى أن أغفر لكم تلك السخرية بعدما تتأكدون من صدق هذا الاختراع!

- مُحال!

رددها الجميع مشدوهين، غير مصدقين ما تسمعه آذانهم..

ابتسم نوح لهم:

- مهلا.. ليس لدينا وقت لإقناعكم.. لدينا خطة، وعليكم بالاطلاع عليها قبل الإقلاع.

كنت صامتًا مقتنعًا بكل ما يقال، فليس غريبًا على إبراهيم قلقاس، التوصل لاختراع كهذا.. كنت واثقًا بقدرته الفذة.. تعلقت بتلك العملية، واعتبرتها طوق نجاة استثنائي، سيمنحنا فرصة لإنهاء تلك الحرب الأهلية، وبالتالي أستعيد حبي عمري رضوى شاهين.. عاد نوح إلى المنصة مرة أخرى.. وأُغلقت الأنوار وأُضيئت شاشة العرض مرة أخرى.. وقف إبراهيم قلقاس بجوار الرئيس نوح مُرتديًا نظارته الطبية السميكة.

بالجانب الأيسر من الشاشة، شاهدنا أمامنا صورة مثبتة لخريطة جمهورية مصر العربية.. وقف بالناحية الأخرى عوف مختار، مُمسكًا ملفًا من الأوراق مغلفًا بعلم مصر..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. العملية صقر.

تناوب نوح وقلقاس شرح الخطة بالترتيب، بينما يُكتب على الشاشة عناوين مختارة من تلك العملية المستحيلة..

– ستقلع الطائرة المجهزة بتلك التقنية بعد ساعة من الآن.

– كلٌ منكم له مقعد خاص مكتوب عليه اسمه.

– وسوار إلكتروني لكل منكم.. عليكم وضعه في اليد اليسرى بمجرد صعودكم على الطائرة.. وممنوع منعًا باتّا خلع ذلك السوار مهما جرى أثناء تنفيذ العملية، وإلا ستكون العواقب وخيمة.

– سنسافر إلى يوم ٢١ يوليو عام ١٩٥٢.. ستهبط الطائرة في نفس مكان الإقلاع، ومن دراستنا لإحداثيات المكان قبل مائة عام تقريبًا سنكون في صحراء جرداء..

– سيكون بانتظارنا سيارات لأفراد من الأمن العام سبقونا قبل يومين سفرًا عبر الزمن إلى هناك.. سيقتادوننا لمكان سري أُعد خصيصًا لإقامتنا. ومن هناك ستبدأ العملية صقر بالتنفيذ..

– سيتم تقسيمنا إلى مجموعات، وسنعمل بالتوازي سويّا.

– مجموعة رقم ١ سيكون لديها بطاقات لضباط بالجيش المصري حينها، وسأكون على رأس تلك المجموعة البكباشي نوح سقراط ضابط بالجيش المصري..

..ستتجه لمقابلة الملك فاروق بأية طريقة والإبلاغ عن حركة الضباط الأحرار قبل حدوثها بيوم واحد.

برقت أعين الجميع، فقد فاق ما يسمعون كل حدود العقل.. استكمل الاثنان خطتهما بتركيز شديد..

سنقنع الملك بإلقاء القبض على الضباط الأحرار المعروفة أسماؤهم لنا جميعًا.. وبعد ذلك بيوم واحد نقوم نحن بالانقلاب على الملك والسيطرة على الحكم.

– لا تخافوا، فمعنا على طائرتنا العديد من الأسلحة والذخيرة وعدد من الدبابات الحديثة، التي ستنتقل معنا لنفس الزمن وستساعدنا كثيرًا في السيطرة على الأوضاع، وتنفيذ ما قام به الضباط الأحرار في نفس الموعد، ولكن من دونهم.

– حينها سنعلن السيد نوح سقراط، رئيسًا لمجلس قيادة الثورة. وبالتبعية، سيصبح أول رئيس للجمهورية.

– وفي نفس التوقيت، المجموعة الثانية تتحرك مُسافرة بنفس التقنية عبر الزمن لعام ١٩١٠، وتتجه إلى محافظة البحيرة.. وعليها اختطاف المدعو حسن البنا، المؤسس الأول لجماعة الإخوان المسلمين طفلًا ابن ست سنوات.. والعودة مرة أخرى إلى زمن ثورة يوليو.

– سنقوم بالتحفظ عليه تحت أعيننا طوال الوقت، وبهذا نضمن اقتلاع جذور هذه الجماعة، المتسببة بالأزمات منذ نشأتها.. يقوم السيد نوح سقراط بمراقبة الأوضاع، ومتابعة حركة الإخوان – التي من المفترض حينها أن تختفي تدريجيًا، نظرًا لانتفاء وجود مؤسسها، وإصدار العديد من القرارات المحلية والدولية التي تنهض بالأمة، اعتمادًا على معرفته المسبقة بنتائج قرارات مَن عاشوا في تلك الفترة الزمنية.

تبدأ بعدها مهمة باقي المجموعات: –

– الانتشار بالمجتمع المصري.. الإعلامي والفنان والراقصة ومطرب المهرجانات ورئيس النادي الشهير ولاعبو الكرة والصحفيون.. عليكم بتوجيه الرأي العام بعيدًا عن الدين.. لا أريد أحدًا بذلك العصر يفكر ولو للحظة، في الانضمام لأي جماعة دينية أخرى لم تكن في الحسبان..

– بينكم ضباط شرطة وضباط جيش وجنود، اخترناهم بعناية فائقة.

وفنانون وإعلاميون ولاعبو كرة وصحفيون.. أريدها دولة علمانية عسكرية منذ بدايتها..

– وبعد فترة، سنرسل مجموعة استكشافية لزماننا هذا بعام ٢٠٥٠ وكلي يقين أنّ الحرب الأهلية ستندثر تمامًا، ولن يكون لها وجود على الإطلاق..

حينها سنعود مجددًا إلى زماننا بعد نجاح العملية صقر.

– هل لديكم أية أسئلة؟؟

بهتوا جميعًا فلم ينطق أحد.. ولكنني تغلبت على اندهاشي وسألت:

– سيدي الرئيس.. كيف ستتولى رئاسة أول فترة بالجمهورية

وتعود لزماننا وتتولى نفس المنصب؟؟

– كلا.. سأحكم هناك باسم مستعار.. لنقل مثلًا البكباشي حامد صقر.

– وأين سيذهب الرئيس جمال عبد الناصر، والسادات ؟؟

– سيتغير التاريخ يا عزيزي.. سنقوم بإطلاق سراح الاثنين وكل الضباط الأحرار، ولكن بعد فصلهم من الخدمة، وسيصبحون مواطنين

عاديين كباقي الشعب.. وقبل عودتنا نهائيًا سأرسل للسادات، وأعينه نائبًا لي.. واختفائي من زمنهم هذا سيكون بحيلة ذكية..

سنشيع أنّ الإنجليز قتلوني وحرقوا جثتي، انتقامًا من قيامي بالانقلاب العسكري على الملك.. وسيُحرق معها كل دليل على وجودي بذلك الزمان.. كخطاباتي ولقاءاتي المصورة.

– يبدو أن سيادتك لا تحب الرئيس جمال عبد الناصر.

– الأمر هنا لا يقوم على الأهواء الشخصية.. مصلحة الوطن تقتضي القضاء على أي بيئة مساعدة، لوجود تلك التنظيمات الإسلامية البغيضة.

– وحسن البنا؟؟

– سنحضره معنا هنا.. ونعتقله مدى الحياة، حتى يشيخ ويموت خلف القضبان!

– وهل سينجح ذلك في وأد الحرب الأهلية؟؟

– بكل تأكيد.. فأولئك الخونة هم فتيل هذه الأزمة. ..حينما تستقيم الأمور.. لن تدخل مصر في نكسة ١٩٦٧ لن يُغتال السادات.. لن تقوم ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١..لن تتدهور الأحوال.

– وما دوري أنا في ذلك؟؟

قالها عيسى ممتاز مقاطعًا لنا فأجابه نوح:

– الوعي الديني الوسطي.. البعد عن الأساطير والوعظ الحقيقي وإعمال العقل في أمور الدين.

– ألم تقل إنك تريدها علمانية عسكرية؟؟

– الدين الصحيح بالنسبة ليّ هو قمة العلمانية.. لو أنّ شيوخ بلدنا كانوا بنفس عقليتك المستنيرة لما استطاعت خفافيش الظلام السيطرة على القلوب والأفئدة بكل سهولة..

– ولكن هذا الزمن كان مليئًا بالشيوخ الأجلاء.

– صدقت.. ولكنني أريد من يوالي السلطة الحاكمة ويسير على هواها، أثناء فترة تنفيذ العملية، دون أية أعطال أو مبارزات فرعية قد تؤخر نجاحها..

– وأنا لا أقبل أن أصير تابعًا لأي نظام حاكم مهما كان!

قالها رافضًا بقوة، وساد الصمت للحظات.. أشار نوح بإضاءة غرفة الاجتماعات.. وتحرك ناحية عيسى ممتاز، واقترب منه ناظرًا إليه بتحدٍّ.

– لا وقت لدينا للنقاش..

– أنا..

– أنت تقدم خدمة جليلة للوطن.. وعندما تعود لزماننا أفعل ما شئت حتى ولو خرجت لاعنًا للنظام الحاكم في كل خطبك، فلن أتعرض لك .أرجوك..

أدرك عيسى أنه سيصبح بوقًا للنظام ليس إلا.. هذا ما يريده نوح سقراط بكل وضوح.. أيصر على الرفض ويعرض خطتهم للفشل؟؟ أم أنه يقبل التنازل مقابل إنقاذ الوطن؟؟..

لحظات من التردد، أنهاها عيسى مادًا يده لنوح مصافحًا له:

- توكلنا على الله.

- أحسنت يا شيخ عيسى.. سيعرض عليك السيد عوف مختار مجموعة من الخطب والمواضيع، التي نريدك ألا تخرج عنها أثناء العملية صقر..

والآن يا سادة.. انتهى اجتماعنا.. ولدينا أقل من ساعة لنتحرك.

نسيت أن أقول لكم أنّ أهاليكم وأحبابكم إن نجحنا لن يلاحظوا غيابكم مطلقًا.. فبعد انتهاء العملية صقر سنعود بنفس توقيت اجتماعنا هذا، وسنخرج ونعلن كلًّا منكم بمنصبه الجديد، الذي أبلغناكم به قبل الاجتماع، مكافأة لنجاحنا.. والله الموفق والمستعان..

وانتهى الاجتماع التاريخي.. عكف نوح على هذه الخطة ليالي طويلة.. ولم يخبرهم بكل الحقيقة بعد.. فبعضهم مجرد كبش فداء، لنظامه المأمول تنفيذه بعام ١٩٥٢.. الإعلامي الفاسد، والمطرب المجهول، والراقصة الخارجة عن الآداب العامة، وغيرهم.. ربما يُصدر أمرًا باعتقالهم وقتها، لاكتساب شعبية كبيرة بين المواطنين الشرفاء.. ربما يأمر بترحيل أنور أبو النجا من مصر للخارج حينها.. وكأنه اختار البعض من معدومي الأخلاق، ليلازموه في تلك العملية الصعبة، ليحرق كروتهم وقت اللزوم..

خطة شيطانية محكمة، ولكن لا مفر من استخدامها.. كان محركها الرئيسي هو عوف مختار رئيس أركان الجيش المصري، لأكثر من خمسة عشر عامًا..

فالسياسة كما يعتنقها عوف عقيدة خاصة، مباح فيها كل المؤامرات للنهوض بالأوطان.. ولن يتساءل أحد عمن ماتوا أو سُجنوا بعد انتهاء الأزمة.. ولم يستطع نوح سقراط رفض تلك العملية مطلقًا، ولكنه اشترط على عوف حماية حياتهم للنهاية، وعدم تعريضهم للموت مهما تم استغلال بعضهم لصالح عمليتهم..

العملية صقر.. تلك هي حله النهائي.. الحل الأخير.

العملية صقر

(طائرة السفر عبر الزمن – ٢٠٥٠)

اشتباكات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن، على أبواب القصر الرئاسي.. لم تعد الأمور تحت السيطرة مطلقًا.. وانفرط عقد ضبط النفس عن آخره. فالثوار يهاجمون وكأنهم آكلو لحوم بشر، يبحثون عن فريسة لالتهامها.. ولم يعد هناك مفر من المواجهة الدامية.. كر وفر بحديقة القصر الشاسعة، ومزيد من المصابين.. خرجت الأمور عن السيطرة، وجاءت الأوامر بالانسحاب.. وبلحظات فاصلة اختفت قوات الأمن تمامًا، أمام أمواج الثوار العاتية رغمًا عنهم.

هجوم شرس ناحية القصر.. كالصقور تنقض على فرائسها بعد جوع طال لشهور.. عشرة كيلومترات يعدوها الثوار دون توقف.. كانوا يحلمون بقتل نوح سقراط تحت أرجلهم، مُعتقدين أنها نهاية الأزمة.. نهاية ديكتاتورية العسكر كما يدّعون..

كانت الطائرة المرتقبة على أتم الاستعداد للإقلاع، داخل جراج شاسع تحت القصر.. كلٌ في مقعده جاحظي الأعين.. كنتُ بكابينة الطائرة مستعدًا لقيادتها، وبجواري عمي العالم إبراهيم قلقاس.. أخبرني أنه اشترط عليهم وجودي أنا وصديق عمره عزَام، في هذه الرحلة العجيبة.. لحظات عصيبة تحدد مصير وطن بأكمله، بلّ ومصير الوطن العربي، والعالم أجمع..

وفُتح باب الجراج على مصرعيه.. وتحركتُ بالطائرة خارجًا، على طريق مُمَهد ومجهز بحديقة القصر.. كتم الجميع أنفاسه.. رأيت الثوار يقتربون عن بعد.. نظر إليّ عمي حينها بحدّة وبلهجة آمرة:

- لا تتوقف أبدًا مهما حدث.

- سيُسحَقون!

- قلت لك لا تتوقف!

إنهم يقتربون، ومازالت الطائرة على الأرض.. كان نوح سقراط ينظر إليهم من شباك الطائرة، فمقعده كان بجوار عوف مختار في مقدمتها، والدموع بعينيه.. تفحص وجوههم، والغضب المرفرف فوق رؤوسهم.. تساءل:

- لماذا يكرهونني؟؟

سؤال إجابته تحتاج لكثير من الوقت.. فلم يكن الأمر متعلقًا بشخص نوح، بقدر ما كان متعلقًا بمؤسسة بأكملها، حكمت على مدار مائة عام..

– مغيّبون.. يدمرون وطنهم بأيديهم.

همس بها نوح سقراط، واصفًا هؤلاء الثوار المُقتربين.. نظر إليه عوف مبتسمًا:

– لا تخف سيدي الرئيس.. ستعود، وسيصير كل شيء أحسن مما كان!

– أتمنى ذلك..

تساءلت صارخًا في كابينة الطائرة بوجه عمي قلقاس:

– ما ذنب هؤلاء ليموتوا؟

– وما ذنبنا نحن؟؟ وما ذنب نوح الذي لم يحكم بعد؟؟

وما ذنب الأجيال القادمة من تبعات هذا الهراء المجتمعي الفاسد؟؟

– لا أستطيع دهسهم.. سأتوقف!

– لا.. إياك.. لن يغفر لك التاريخ ضعفك! لا تتوقف.

– لا أستطيع.

– لا تتوقف.

– سيموتون!

– لا تتووووووووووووقف.

مد يده ليُجبرني على استكمال سير الطائرة دون توقف رغمًا عني.

والتحمت الطائرة بجحافل المتظاهرين.. كانوا يتعلقون بجناحيها باستماتة.. والبعض الأخر يُدهس تحت عجلاتها.. مئات من الموتى أمام عيني ولا أملك التوقف ولو للحظة.. سيفتكون بنا.. لم أتعرض لمثل هذا الموقف من قبل.. وكأنني كُلفت بإعدام ألف شخص بلحظة واحدة.. نائبًا جبريًا لعزرائيل..

سالت الدموع من عيني، وأنا أرتفع بالطائرة في الهواء.. ما زالوا يحاولون متعلقين بعجلاتها، ولكن بعد لحظات انتهى كل شيء.. مات من مات، ودُهس من دُهس، وهجم الباقون على القصر، واقتحموه.. خراب مذرٍ.. وهدأت الأوضاع مُحلقًا لأعلى:

- معك خطوة بخطوة.. ارتفع أولًا حتى تصل لخمسة وثلاثين ألف قدم.

قالها عمي بادئًا بشرح تقنيته العجيبة.. كنتُ متوترًا للغاية.. نظرت ناحيته بعصبية:

- ألم تسافر منذ يومين بنفس التقنية، ناقلًا رجال الرئيس لنفس الزمن؟؟

- نعم.. ليُجهزوا لنا كل شيء.. وعدت مجددًا بكل أمان ويسر.

- إذن أين الطيار الذي سافر بكم؟؟.. أنا متوتر ولا أستطيع القيادة.

ربت حينها على كتفي بقوة:

- لا.. أريدك أنت يا آدم من تقوم بهذه الرحلة ذهابًا وإيابًا.

- لماذا؟؟

- لأنني أريد ذلك.

- ولكنني متعب ولا أقوى على...

- اهدأ يا بني.. أنت تقود هذه الطائرة إنقاذًا لأرواح الآلاف..

أنت منقذهم من بحور دماء، لن تتوقف إلا بالعملية صقر!

نظرت في عينيه الممتلئة بالقوة والسلطان.. تبدلت نظراته القديمة المُحملة بالأمل منذ عقدين من الزمان، لأخرى منطلقة كالسهام بقلوب الضعف والهوان.. كان قويًا واثقًا بقدرته وسلطانه..

دخلت علينا فتاة ممشوقة القوام، رائعة الجمال في أواخر العشرينيات من عمرها.. ترتدي تنورة سوداء اللون ضيقة، وكنزة زرقاء تبرز جمال تفاصيلها.. نهداها يطلان على استحياء خارجها، لتضفي حالة من النشوة على كل من يراها.. فلا تقوى على إشاحة وجهك بعيدًا عنها.. تحمل بيدها كوبين من العصير تقدمهما إلينا.. ابتسم لها عمي:

- شكرًا يا فهدة.

أشار لي مقدمًا إياها:

- فهدة.. من أفضل المضيفات.. قمت باختيارها بعناية.. وسط المئات من زميلاتها.

– رحلة سعيدة يا كابتن آدم.. رحلة سعيدة سيدي العالم الجليل.

قالتها بصوت يملأه الحنان والرقة.. نظرت في عينيها سريعًا.. حقّا رائعة الجمال.. فأنا خبير نسائي قديم.. فاتنة.. جريئة.. ممتعة.. ولكنني عاهدت نفسي على الالتزام والبعد عن المثيرات، تعبدًا في محراب حبيبتي رضوى.. ابتعدت بعيني بعيدًا عنها، وعن تفاصيل صدرها الظاهرة من تحت ملابسها الضيقة..

– شكرًا.

وخرجت فهدة من كابينة الطيران..

وتابع عمي شرح تقنيته لي.

كان نوح سقراط مهمومًا في بداية الرحلة..

ربت عوف مختار على يده هامسًا:

– لم يكن لدينا خيار أخر.

– أراك هادئًا مبتسمًا على عكس المتوقع..

– ولم لا؟؟

– ألم تكن ضد هذه الرحلة؟؟

– في البداية نعم.. ولكنني وضعت معك الخطة بكل إخلاص.

تمنيت أن يصدق القول.. وفرحت حينما ذهب برجالنا منذيومين وعاد

من دونهم، ومعه تسجيل مصور لهم بحفل مباشر لأم كلثوم.. كان عليّ تصديقه في أي شيء بعدها.

– عذرًا سيادة الرئيس.. أهناك ما تخاف منه في خطتنا؟؟

– لماذا تقول ذلك؟؟

– لأنني أشعر بأنك متوتر بعض الشيء.. صارحني.. فأنا خليلك وكاتم أسرارك..

تنهد نوح سقراط هامسًا:

– سيقولون إنني غير ناصري وضد فترة حكمه.

– لن يبقى ناصر بالتاريخ حتى يُنسب إليك أنك ضده!

– ولكنه ابن نفس المؤسسة التي ننتمي إليها.

– سيادتك تعرف جيدًا ما كان بينه وبين الإخوان في بداية حكمه.

– ولكنه انقلب عليهم، وسجنهم بعد محاولة اغتياله!

– بعد.. وليس قبل.. لو أننا ذهبنا إليه وحذرناه سيعتقلنا نحن!

ثم إننا لن نضر بالوطن أبدا فالانقلاب العسكري في عام ١٩٥٢ سيتم بموعده .. وكل قراراته الجيدة سننفذها بأنفسنا.. وناصر لن نضره كأي مواطن بهذه البلد.. توكل على الله يا سيدي،ولا تشغل بالك بتلك المشاعر الزائفة..

وقف عمرو حليم أمام كاميرا موضوعة بمنتصف الطائرة، وكأنه يُقدّم برنامجه اليومي.. كانت الأوامر الرئاسية أن تُصور هذه العملية السرية خطوة بخطوة، حتى يتم عرضها على العالم أجمع، بعد عودتهم سالمين.. حتى وإن كان هناك ما سيتم حجبه منها، تبعًا لأهواء نوح سقراط، أو عوف مختار المدبر الأول لهذه العملية صقر.. ابتسم عمرو حليم، مواجهًا الكاميرا الموضوعة على كتف أحد المصورين المختارين:

– صباح الخير أعزائي المشاهدين، وحلقة استثنائية من طائرة العالم المصري الجليل إبراهيم قلقاس.. نحن الآن نتابع العملية السرية صقرَ بقيادة السيد نوح سقراط رئيس الجمهورية.. والسيد عوف مختار رئيس أركان الجيش المصري.. وكما نرى معنا حوالي مائة شخص مختارين بعناية، للمشاركة بهذه العملية العظيمة التي ستغير التاريخ.

.. نحن الآن داخل الطائرة المجهزة للسفر عبر الزمن.. مفاجآت عديدة أعزائي المشاهدين.. سنكون معكم خطوة بخطوة..

ابقوا معنا.. فاصل وسنعود..

أشار عمرو للمصور هامسًا:

– رائع.. أريدك أن تمر بالكاميرا على كل الركاب وتصورهم.

– حسنًا.

وخرجت الأغاني الوطنية وموسيقاها من سماعات الطائرة، لتضفي جوًا من الوطنية في نفوس الجميع.. كانت الوجوه شاحبة مُترقبة لمصيرهم

المجهول.. الجميع يرتدي ملابس تنتمي للخمسينيات من القرن الماضي، فالرجال زادت سوالفهم بشكل ملحوظ.. ودندشة الفتاة الوحيدة بالمهمة بخلاف فهدة المضيفة الجوية، فكلاهما ترتديان تنورتين قصيرتين، وأرجلهما الناعمة تظهر من تحتهما.

كان إسماعيل شمروخ رئيس النادي الشهير متوترًا للغاية، فقد أُجبر على هذه الرحلة العجيبة، ولو أنّ الأمر بيده لرفض المشاركة منذ الوهلة الأولى، ولكنه يرتعد من السلطة، ويعلم جيدًا أنّ بيدهم كل شيء، وقد يقضي خلف القضبان ما تبقى من عمره دون مبالغة.. رضخ لأوامرهم دون تردد.. أجابه عوف مختار بعد الاجتماع، حينما بادر بسؤاله عن دوره بالتحديد في العملية صقر:

– ستُدرب نفس الفريق.

– ماذا؟؟

– لا تتعجب.. سنقوم بتعيينك مُدربًا لنفس الفريق وما عليك سوى إلهاء الناس بالخلافات الكروية بين فريقك والفرق الأخرى كما تفعل في زمنك الحالي.

– أهذه هي مهمتي فقط؟؟

– مهمة جليلة يا سيد شمروخ.. فالناس تحتاج لأمثالكم دائمًا، لتنشغل بها عن متاعب الدنيا وأحمالها الزائدة.

قطع شرود إسماعيل شمروخ صوت الراقصة دندشة، الجالسة بجواره واضعة قدمًا فوق قدم.. بياضهما يضوي بعينيه كلما نظر ناحيتهما.. ابتسمت له:

– كيف حالك إسماعيل بك؟؟

– بخير يا فنانة..

– دندشة.. اسمي دندشة!

– وهل يخفى القمر..؟؟ أعرفك جيدًا وأتابع أعمالك بكل تركيز.

ضحكت بخلاعة، وأخرجت سيجارتها من علبة بصدرها:

– أستأذنك بإشعالها لي؟؟

– عيوني.. رحلة موفقة بإذن الله!

قالها ملتهمًا بعينيه صدرها المكتنز، وهو يشعل سيجارتها.

كان جالسًا خلفهما الممثل الشهير أنور أبو النجا، ومطرب المهرجانات مجدي فلفل.. نظرا إلى بعضهما البعض سخريةً من شمروخ ودندشة.. همس له أبو النجا:

– انحلال.. رجل في عمره عليه بالبحث عن مقبرة لدنو موته.

– دع الخلق للخالق يا فنان!

– استمعت لأغانيك وأعجبتني.

– أشكرك يا أمير الكون.

– أنور.. أنور أبو النجا.

– أعرفك.. أنت مختلف.. وهذا سر نجاحك.

– رب الكون ميزنا بميزة الحمد لله!

هل أنت متزوج يا فلفل؟؟

– الحمد لله ولديّ أربعة أولاد.

– أربعة؟؟ أحسنت.

ربت حينها على فخذه المجاور له ضاغطًا بيده عليه.. فأزال مجدي يده بتلقائية ضاحكًا:

– لا لا لا.. طريقك سدّ يا فنان.. نحن في عملية نحتاج ستر الله وتوفيقه فيها.

قالها مُرتابًا بأنور، فالقضية الشهيرة للشذوذ الجنسي، يعرفها القاصي والداني. وأشاح وجهه بعيدًا عنه قاطعًا حوارهما..

أثار ذلك حفيظة أبو النجا، فسأله مغتاظًا:

– أنت مسلم أليس كذلك؟؟

– الحمد لله.. مسلم وموحد بالله!

– ألم يأمرك الإسلام أنّ بعض الظن إثم؟؟

– يا فنان أنا رجل غير متعلم.. تربيت على الأصول والمبادئ، وأعرف أنّ الرجل رجل.. ولكنك لا تؤاخذني معروف عنك.. أستغفر الله العظيم..

– كذب.. إشاعات مُغرضة!

ولو افترضنا أنه حقيقة.. هذه طبيعة بشرية!

خلقها الله ببعض البشر.. فهل تستنكر على الله خلقه؟؟

– أعوذ بالله.. لا تدّعي على الله ما ليس فيه.

– حسنا.. حسنا.. لنُغلق الحوار في ذلك الأمر..

– أخبرني ما اسم أولادك..

استكملا حديثهما على مضض.. كان عزام جالسًا بمنتصف الطائرة في أحد المقاعد بجوار الشيخ عيسى ..

نظر إليه مبتسمًا مُصافحًا له:

– عزام عزام.. باحث وجيولوجي.

– عيسى ممتاز.. الشيخ عيسى ممتاز.

– أعجبني موقفك في قاعة الاجتماعات..

– أي موقف؟؟

– رفضك الاشتراك بالعملية صقر، ومواجهتك للرئيس بكل قوة.

– ولكنني وافقت في النهاية!

– خوفًا على وطنك.. أعلم أنك أنكرت ذاتك لوطنيتك المفرطة.

– كلا.. ولكنني شغوف بالتجربة.

– وأنا أيضًا.

– معتقداتي الراسخة تخبرني، باستحالة حدوث ما نحن بصدده ولذلك تنازلت لملازمة التجربة لحظة بلحظة.. وسأفعل ما يحلو لي إن ذهبنا حقّا لهذا الزمان، ولن أصبح بوقًا للنظام كما يعتقد الرئيس!

– ستخالف الخطة؟؟

– سأفعل ما يمليه عليّ ضميري.

– لا تعرض نفسك للمتاعب، فتقوم قيامتك قبل الأوان.

ابتسم عيسى حتى بدت نواجذه..

تابع عزام بسؤال فجائي:

– أنا أعرفك جيدًا.. وأتابعك منذ فترة ليست بالقليلة!

– حقّا؟

– نعم.. تابعت أزمتك مع وزارة الأوقاف، بشأن خطبة يأجوج ومأجوج!

– هكذا هم.. يصمون آذانهم عن الحقيقة، ويقتلون ناطقيها بكل قسوة.

– أتعرف أنني اقتنعت تمام الاقتناع بوجهة نظرك؟

– بارك الله فيك.

– أليس لديك تفاسير أخرى، لمثل هذه الأمور الغيبية؟؟

– لدي الكثير.. وإن كُتبت لنا النجاة، فسأعمل جاهدًا على نشر معتقداتي في كتب، لتوثق بالتاريخ الإسلامي المعاصر..

- إذن أخبرني منها بعض الشيء.. الوقت طويل هنا..

ابتسم عيسى، سعيدًا بشغف عزام للاستماع إليه..

فكر قليلًا حتى وجد موضوع خطبته الفردية أمام عزام..

- هل حاولت أن تفكر ولو لمرة مَن هو المسيح الدجال؟؟

- أنت تعرف من هو؟؟

- نعم..

- يا الله.. أسمعك بكل جوارحي!

- هل تخيلت ذلك المشهد، الذي ذكره سيدنا النبي محمد ﷺ عن سجود الناس للمسيح الدجال في المستقبل؟؟ هل خمنت أو وضعت احتمالات لهذا الرجل؟؟ القصة قديمة، ولا تنفصل أبدًا عن قوم يأجوج ومأجوج. وقد يكون يأجوج ومأجوج، الأذرع الخفيّة للمسيح الدجال في الأرض..

ذكره سيدنا محمد في الحديث الشريف:

«اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، ومن عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال».

الملاحظة الأولى هنا أنه فتنة عظيمة، ستصيب الناس في آخر الزمان.

فتنة لن تستطيع حماية نفسك منها، إلا بقراءة فواتح سورة الكهف.

تابع معي الحديث الثاني:

«إنّ الله ليس بأعور، ألا إنّ المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأنّ عينه عنبة طافية، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعًا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح بن مريم، ثم رأيت رجلًا وراءه جعدًا قططًا، أعور العين اليمنى، كأشبه من رأيت بابن قطن، واضعًا يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ قالوا: المسيح الدجال».

الملاحظة الثانية هنا أن المسيح الدجال.. رجل آدمي يدّعي أنه المسيح عيسى بن مريم ثم يدعي الألوهية بعد ذلك فيتبعه الناس.

ولكن لماذا سيدنا النبي ذكر أنه أعور.. وقال إن ربك ليس بأعور؟

ولو افترضنا جدلًا أنه شخص سليم العينين وليس أعورها، فكيف سيصير الوضع إذن؟؟

لماذا لم يقل إنه لا يمكن أن يحلّ إنسان محلّ الله جل وعلا؟؟

وهنا تظهر الأمور جلية واضحة لك..

هذا اللفظ كناية عن شيء أخر.. أعور العين له معنى آخر غير معناه اللفظي.. أعور الفكر مثلًا.. أعور الدين.. أو أي معنى آخر!

ولو أننا ابتعدنا عن التفسير الأسطوري، وفكرنا بالعقل والمنطق هل يُعقل أنّ هناك إنسانًا يعيش منذ قديم الأزل حتى الآن؟؟

وهل يُعقل أنّ المسيح الدجال شخص مثلي ومثلك، له قدرات خاصة ويحيي الموتى، ويدّعي أنه الرب؟

فلنبحث إذن وراء المعاني، لنصل بعقولنا للحقيقة كاملة..

الله سبحانه وتعالى أخفى عنا أمر الساعة، لتكون فتنة.

وهناك أشراط للساعة، كان لها معنى مخالف لمعناها الحرفي.

والأمثلة كثيرة:

الحديد يتكلم.. منذ مائة وخمسين عامًا عرفنا معناها المقصود.. وهو اختراع التلفاز والهواتف والإذاعة..

حمار المسيح الدجال.. وصف النبي عليه الصلاة والسلام، أنّ المسيح الدجال سيركب حمارًا، المسافة بين أذنيه كبيرة، وسرعته عالية للغاية ستقترب لسرعة الصوت.. ترى الآن بوضوح أنّ المقصود هو الطائرة..

ولفظ تخرج دابة تكلم الناس.. الدابة في الماضي كانت إما خيلًا أو حمارًا أو جملًا.. الدابة الآن هي الطائرات والسيارات والسفن.. بهم سماعات يخرج منها أصوات الناس كما نستمع الآن لهذه الموسيقى الوطنية..

نعود لموضوعنا.. من هو المسيح الدجال؟؟

الرسول ﷺ أخبرنا أنه سيمكث في الأرض أربعين يومًا يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وباقي أيامه كأيامنا.

المسيح الدجال في اعتقادي ليس شخصًا فقط.. المسيح الدجال أسلوب حياة

دين جديد يتبعه أغلب البشر.. يسجدون له.. أو بمعنى أصح لا دين! ومنهم المسلم واليهودي والمسيحي.. متبعو الأديان السماوية ظاهريًا.. ولكنهم في الحقيقة من أتباع يأجوج ومأجوج.. منسوخين منهم.

واعتقادي أنّ يوم كسنة: هي الفترة التي كانت فيها بريطانيا دولة عظمى، تحكم العالم وتنشر فكرها وفكر يأجوج ومأجوج.

ويوم كشهر: هي الفترة التي أصبحت فيها أمريكا الدولة العظمى، واستمرت أيضًا تنشر نفس الفكر.. نفس اللا دين.. نفس أسلوب الحياة.. تنشر المسيح الدجال..

ويوم كأسبوع: هي تلك الفترة التي نُقبل عليها الآن وهي أن تصبح إسرائيل هي الدولة العظمى في العالم.

وأي متتبع للأحداث في السنوات الأخيرة يدرك ذلك!

الدين الحق يندثر رويدًا رويدًا...

وبعد جيل أو اثنين على الأكثر، سيصبح دين المسيح الدجال هو المسيطر على العالم.. أسلوب حياة واحد فقط..

- وباقي أيامه كأيامنا؟؟

سأله عزام بشغف كبير!

- قد يتجسد هنا بإنسان مثلنا، وأعتقد أنه سيكون رئيسًا لإسرائيل بعدما ستصبح دولة عظمى.. سيسيطر على العالم أجمع..

من معه سينعم بجنته الزائفة، ومن ضده سيصلى ناره الملتهبة!

- عذرًا يا شيخ عيسى.. هذا تفسير غير منطقي.. لم أقتنع به مطلقًا!

- الأيام بيننا.

– لو أنّ ما تقول حق.. فمعنا هذه التقنية للسفر عبر الزمن، سأهرب حينها لأعيش في الماضي، بعيدًا عن هذه الأحداث!

ضحك عيسى كثيرًا وشاركه عزام بالضحك.. قطع ضحكاتهم عمرو حليم، ممسكًا بميكروفون أمام كاميرته المحمولة:

– ما أسمك؟؟

– عيسى.. الشيخ عيسى ممتاز

– وحضرتك؟؟

– عزام عزام

– أستاذ عيسى.. كلمة توثق بها بداية الرحلة؟؟

– ربنا يتقبل منا سائر أعمالنا .. ويكتب هذه العملية السرية في صالح أعمالنا بإذن الله.

– أستاذ عزام؟؟

– آمين.

وقفت أمامهم فهدة المضيفة الساخنة، وأمامها عربة مليئة بالمشروبات، مبتسمة لعيسى:

– مشروب حضرتك يا فندم؟

– حلبة حصى!

قالها بتلقائية شديدة.

انفجر بعدها عزام وعمرو حليم بالضحك، وشاركتهم فهدة بذلك.

ما زال نوح سقراط وعوف يتحاوران هامسين:

- ولكنني خائف من هذا الشيخ المدعو عيسى ممتاز!

- بالعكس.. حينما عرضت عليه الخطب المجهزة له.. زاد فرحه وشغفه بالعملية صقر.

- بعدما كان رافضًا لها؟

- نعم.. أعرف جيدًا مفاتيح عقله.. هذه الخطب كلها عن أمور غيبية وأحداث الساعة الصغرى والكبرى.. أشياء يعشقها هو.. وستجعل الناس بذلك العصر المسافرين نحوه، ينشغلون بها وينسجون الحكاوي حولها وهو المطلوب!

- أنت تفكر كإبليس يا عوف!.

- سيدي الرئيس.. السياسة تحتاج تلك الألاعيب.

- أدرك ذلك جيدًا.. ولكنني لا أحبها.

- تعوّد سيدي الرئيس.. تعوّد.

وقف حينها مجدي فلفل هاربًا من حواره مع أبو النجا، موجهًا حديثه للجميع وكأنه في فرح شعبي:

- سلام كبير جدًا لرئيس الجمهورية نوح بك سقراط.

تبعه أنور أبو النجا، بتقليد صوت الموسيقى الشعبية المعتادة في مثل هذه المواقف بفمه:

- "تم ترارالم تم تم"

- نوح سقراط.. نوح سقراط

كان البعض يردد خلفه مجاملة للرئيس المبتسم بمقعده، مشيرًا لهم برضاه عما يفعلون!

- نوح سقراط نوح سقراط

- حبيب الكل..

- سقراط

- أب الكل..

- سقراط

- كبير الكل..

- سقراط

- نوح سقراط.. نوح سقراط

- نوح سقراط.. نوح سقراط

دارت أغنية "وطني حبيبي الوطن الأكبر"..

علامات الحماس على وجوه الكثيرين..

ما زالت الوطنية هي الورقة الرابحة فوق كل مخاوفهم.. دقات قلوبهم يدندنون بكلمات الأغنية معها بحماس شديد:

– وطني حبيبي الوطن الأكبر.. يوم ورا يوم أمجاده بتكبر

بانتصاراته مالية حياته.. وطني بيكبر وبيتحرر.. وطني وطني.

ملأت الدموع عيني نوح سقراط، ناظرًا من شباك الطائرة شاردًا مبتسمًا، مُتخيلًا ما ستؤول إليه الأحداث بعد نجاح مخططه الخفي.. تساءل كيف سيتغير التاريخ؟؟.. ماذا سيحدث حين يمحو بيده كل ما عانته تلك الأمة؟؟.. أحلام كتب له القدر تحقيقها بالساعات القادمة.

نظر إبراهيم قلقاس إلى مؤشر الطائرة.. حيث وصلت سرعتها إلى ٩٠٠ كيلو متر رمقته مترقبًا متوجسًا.

أمسك قلقاس بالميكروفون الداخلي بثقة شديدة، متحدثًا إلى جميع الركاب:

– على الجميع التأكد من ربط الأحزمة.. على السادة الركاب التأكد من ربط الأحزمة.

أنصت له الجميع مترقبين.. يبدو أنّ اللحظة الحاسمة قد حانت.. صمت مطبق وكأن على رؤوسهم الطير.. استمر صوت قلقاس يرشدهم:

– الجميع يتأكد من ارتدائه السوار الإلكتروني باليد اليسرى..

مرة أخرى.. الجميع يتأكد من ارتدائه السوار الإلكتروني باليد اليسرى.

كان سوارًا يشبه الساعة، ذا إطار جلدي سميك، وبمنتصفه شاشة مستطيلة بها أرقام تتغير باستمرار..

- والآن.. مرحبًا بكم في طائرة قلقاس للسفر عبر الزمن.

حانت الآن اللحظة الحاسمة.. على السادة الركاب كتم الأنفاس، والامتناع عن التدخين.. إبراهيم قلقاس يتمنى لكم رحلة سعيدة.

نظروا إلى بعضهم البعض بترقب شديد..

أخرج قلقاس جهازه الصغير من أحد جيوبه.. يشبه الهاتف المحمول ولكنه سميك عنه بعض الشيء.. له شاشه كبيرة مستطيلة.

ضغط قلقاس على الجهاز، فكُتبت أرقام تراها بوضوح عندما تنظر إلى شاشته: (٢١-٦-١٩٥٢)، وتسمعها من قلقاس يهمس بها، وتراها أيضًا تُكتب على شاشات أساور الركاب جميعهم.. في أيدي الجميع بما فيهم أنا، وفهدة الجالسة معنا بكابينة الطائرة..

وقلقاس ذاته يرتدي نفس السوار بنفس الرقم: (٢١-٦-١٩٥٢)

نظر الجميع إلى أرقامهم بتوجس، ممزوج بشغف لا يُقارن، ملأ أعينهم جميعًا.

نظرت إلى عمي بعينيه خوفًا من المجهول.. تدثرت بتلك الثقة النابعة من نظراته، المفعمة بالغرور والانتصار..

ضغط عمي قلقاس على الجهاز بيديه.. ضغط على الزر الوحيد به المكتوب عليه (تشغيل).

ساعة الصفر.. زادت سرعه الطائرة أضعافًا مُضاعفة.. سرعة صاروخية وسط ذهولنا جميعًا.. ووسط تمتمات الشيخ عيسى بالقرآن.. تراهم جميعًا جاحظي الأعين، تسمع دقات قلوبهم ممتزجة، وكأنها تصرخ باستحالة التجربة.. ولكنهم يعيشونها رأى العين لحظة بلحظة.. كنت فخورًا بعمي حقا.. سيخلد اسم قلقاس بالتاريخ.. ستدون أسامينا بحروف من نور.

كانت السماء حولنا تتحول إلى دوامات سوداء، تخترقها الطائرة وكأنها دوامات تستقطبها بسرعة رهيبة..

وكلما ازدادت تلك الدوامات، ازدادت ابتسامات عمي قلقاس..

حبس الجميع أنفاسهم، وهم يتابعون ما يحدث من خلال شبابيكهم الجانبية، بينما تابع عمي جميع الأجهزة والمؤشرات.

وفجأة ظهر جسم غريب، لاحظه قلقاس يقترب عن بعد على شاشة الرادار أمامنا، وبلحظتها انطلقت صافرة الإنذار بالطائرة تُرعبنا.. نظر الجميع بعضهم إلى بعض غير فاهمين ما يحدث.. همس نوح سقراط لعوف مختار بجواره:

– هذا الإنذار لا يعمل إلا في حالات الخطر، كالحريق أو التصادم أو السقوط.

– اعط له أوامرك بالهبوط فورًا يا سيدي.

جحظت عيناي، وأنا أسأل عمي بتوتر شديد:

– ما هذا الشيء يا عمي؟؟

أجابني وقد برقت عيناه:

– مُحال.. مُحاااااااال

صرخت فيه:

– سنموت؟؟ سنموت يا عمي؟؟

اقترب الجسم الغريب أكثر وأكثر، وبدا واضحًا على شاشة جهاز الرادار، بينما ازدادت حدة سارينة الإنذار.

جحظت عينا قلقاس:

– ما يحدث الآن خارج حساباتي بالمرة!

– تصرف يا عمي.

– لا أستطيع!

– سنموت.. سنموووووووووووووت

– هذا نيزك.. نيزك سيضرب الأرض وسنصطدم به لا محالة!

قالها قلقاس بصوت مرتعش!

تعالت حدة سارينة الإنذار، وازداد الرعب على وجوه الجميع مع تعالي صرخاتي:

سنموووووووووووووووووووووووووت.

وماجت صرخاتنا بصوت الاصطدام المريع.. كان نيزكًا مشتعلًا آخر ما رأته عيناي..

انقطعت الكهرباء وساد الظلام الدامس.. عقب انفجار ضخم، لا يعلو على صوته إلا صوت صرخاتهم الممتزجة.. وسقطت الطائرة.. تسمع دوى سقوطها بقوة، والنيران مشتعلة بها.

ترى هل سيموتون جميعًا.. أم سينجو أحدهم؟

أين ستسقط الطائرة؟ أين موقعهم من الكرة الأرضية؟

هل سيلتهمهم أحد المحيطات، ويبيتون وجبة دسمة لأسماك القرش؟

أم سيقعون على أرض صلبة مُحترقين وتتفحم جثثهم؟

تساؤلات عديدة، جميعها تنبئ بنهاية غير سعيدة للرحلة..

ولكن إجابة واحدة صريحة واضحة.. فشلت العملية صقر قبل أن تبدأ!

فشلت رحله السفر عبر الزمن..

رحلة إبراهيم قلقاس.

قلقاس بن فرناس

سقطت الطائرة، وضاعت معها أحلامهم المُتعلقة بتقنيتها العجيبة.. شيء لم يكن بالحسبان، باغت آمالهم في مهدها.. سوء حظ لا مثيل له.. ظهور هذا النيزك النادر، أفشل عمليتهم العسكرية المرجوة قبل بدايتها.. وكأنّ العملية صقر تحولت إلى لعملية صفر بلحظة واحدة..

طُعنت آمال آدم بالقضاء على الحرب الأهلية، والعودة لحبيبته رضوى شاهين، وباتت مهددة بالفناء إلى الأبد.. وسيظل نوح سقراط ورئيس أركانه عوف مختار طريدين مُشردين، فمؤكد الآن قد احترق كل شيء بالقصر الرئاسي.. وخرج الثوار معلنين هروبه، وسيطرتهم على مقدرات الأمور..

وقد تكون هيئة من الأمم المتحدة بهذه اللحظات على مشارف القصر، تستعد لاحتلال مصر بكل يسر وسهولة، محتفلين بالقضاء على الطاغية المزعوم.. طاغية لم يحكم البلاد.. وُضعت كل أمانيهم بالنجاة، على أجهزة للإنعاش المؤقت، مُنتظرة إعلان موتها الإكلينيكي، بكل خوف وارتياب بأية لحظة.

هبطت الطائرة فوق صخور عتيقة، في ليلة غاب عنها القمر.. كانت بحالها وكأن شيئًا لم يحدث.. وكأن الاصطدام لم يمسها بسوء على الإطلاق.. ولكن من يتفحص مقدمتها سيلاحظ كسرًا ضئيلًا بزجاجها، ملونًا بأبخرة سوداء تخفي ما خلفه تمامًا، وكأن ذلك النيزك المشتعل رسب أبخرته المحترقة عليه.. بل وعلى شبابيكها بالكامل.. ضباب كثيف يحيط بها يتلاشى رويدًا رويدًا..

فتحت عيني بمكاني بكابينة الطائرة وجسدي يؤلمني بشدة.. وكأن ضلوعي قد تكسرت بأكملها.. لم أر شيئًا على الإطلاق من زجاج الطائرة المشبع بالسواد.. مددت يدي، محاولًا مسح ذلك اللون القاتم دون فائدة..

كان عمي قلقاس بجواري فاقدًا للوعي.. للحظات لم أدرك ما نحن عليه ولكنني تذكرت ما حدث بالدقائق الماضية.. تبا لذلك.. لقد فشلت العملية صقر.. وكانت فهدة هي الأخرى مُلقاة على الأرض غائبة عن الوعي تمامًا.. ناديت عليها وعلى عمي إبراهيم قلقاس خائفًا:

– عمي.. عمي.. عمي.. فهدة.. يا عمي.

عاد إليه وعيه سريعًا.. فتح عينيه مرتابًا ناظرًا حوله:

– ماذا حدث؟؟

– لا أدري.. سقطنا بعد اصطدامنا بالنيزك!

– سحقًا.. ما هذا الحظ العاثر؟؟

– الحمد لله أننا مازلنا على قيد الحياة.

وعادت فهدة لوعيها متسائلة:

– ماذا حدث؟؟

تحامل قلقاس على نفسه، ونهض سريعًا ليخرج من الكابينة صارخًا بي:

– تعال.. لنتأكد من سلامة الجميع!

نهضت معه بالكاد ودخلنا جسد الطائرة.. كانوا بمقاعدهم كما هم.. يفيقون واحدًا تلو الآخر.. لحظات عصيبة.. ساد الصمت المطبق بين الجميع.. كل يُنظر لغيره ولا يدرك ما يحدث.. كلنا بخير.. لم يُمس أحد بسوء على الإطلاق.. حتى صناديق الأسلحة، والذخيرة المرصوصة فوق بعضها البعض بمؤخرة الطائرة، لم تتحرك من مكانها..

لم تكن تلك الطائرة اعتيادية.. فقد صُممت خصيصًا لتلك المهمة السرية ولتحمل على متنها ليس نحن فقط، بل عددًا لا بئس به من الدبابات الحديثة، وصناديق من الأسلحة والذخائر.. وبعضًا من القنابل والصواريخ المتطورة، وكأنها طائرة شحن حربية خاصة، بها مائة مقعد إضافي بشكل استثنائي.. كنا بمنتصف الطائرة، حينما صرخ بنا الرئيس نوح سقراط، ناهضًا من مقعده بحدّة متناهية متجهًا ناحيتنا:

– ما الذي يحدث بحق الجحيم؟؟

– اهدأ سيدي الرئيس!

قالها قلقاس محاولًا فهم ما يدور.. كان هناك صوت حولنا يتعالى.. أصوات خبطات متتالية على طبول بشكل رتيب ومتوالٍ.. وكأنها طبول إعلان حرب ما.. دقات قوية متتابعة.. يتخللها موسيقى راقصة، تمتزج معها أحيانًا وتنعزل أحيانًا.. نظر قلقاس إلى عزام متعجبًا.. شيء ما يشك به، يتسرب إلى نفسه وإلى نفس عزام في آن واحد.. صرخ به نوح:

- أين نحن؟؟ هل فشلت المهمة؟؟ أخبرني ماذا يجري؟؟

- سأراجع تقنيتي، وكل شيء سيكون على ما يرام.

- ماذا تنتظر إذن؟؟

حينها اهتزت الطائرة إثر ضربة قوية بمؤخرتها.. واهتزت أرضها من تحتنا كزلزال لا يتوقف.. ارتاب الجميع، ونهضوا من مقاعدهم باتجاه مقدمة الطائرة مسرعين.. تكررت الضربات بشكل متلاحق، وكأنّ أحدهم يضرب بمعوله الضخم جسد الطائرة الخلفي..

سيطر الرعب على وجوهنا الشاحبة.. شعور بالمجهول يلتهم قلوبنا المرتعشة.. كانت شبابيك الطائرة جميعها مغلفة بالسواد.. حاولنا رؤية ما يحدث بالخارج دون جدوى.. تعالت أصوات الطبول، بإيقاع أسرع وأشد رهبة ورعبًا.. امتزجت الأصوات بالخارج، مع ضحكات تتعالى من آن لأخر.. وضربات أخرى خفيفة على جسد الطائرة بأكمله في كل مكان، بالأخص نصفها الأمامي.. وكأنها محاطة ببشر يدقون عليها بكل قوتهم بقبضات أيديهم..

صرخ نوح بقلقاس:

- أين ذهبت بنا أيها العجوز؟؟

- لا أدرى.. لا أدرى الآن أي شيء!

تحرك أنور أبو النجا متوترًا ناحية باب الطائرة، محاولًا فتحه:

- لنفتح الباب ونخرج من هنا.

صرخ به نوح :

- لا.. توقف.. لا تفتح الباب!

- عذرًا سيدي الرئيس.. علينا أن نعرف أين نحن.

- قد يكون الثوار بالخارج ويفتكون بنا.

- سيفتكون بك وحدك سيدي.. ليس لنا شأن بذلك كله.

- أتخون وطنك بهذه السهولة؟؟

سأله عوف مختار، وسط ذهول نوح سقراط لجرأته في الحوار:

- خيانة وطن؟؟ أريد فقط أن أفتح الباب يا سيادة الفريق وأخرج من هنا.. كل هؤلاء يريدون ذلك.. كلنا لا نريد هذه العملية صقر.

ولولا خوفنا من بطشكم لما سافرنا معكم!

كان أنور مرتعشًا للمواجهة الشجاعة تلك، ولكنه شعر بخطر كبير يقترب قد يودي بحياتهم.. اقترب منه عوف مختار، وصفعه بقوة وسط

صمت الجميع.. أشار حينها عوف لأحد الضباط، المشتركين بالعملية صقر على متن الطائرة، فقام بالقبض عليه ومحاولة تقييده، بينما قاومه أبو النجا بقوة صارخًا:

– دعوني.. أنتم طغاة.. اتركوني! سنموت جميعًا لا محالة.. لنخرج من هنا!!!!!!!!.

حالة من القلق والرعب بأعين الجميع.. صرخ عوف في الجميع ليعلو صوته صرخات أنور أبو النجا:

– لا مجال هنا للخنوع والخيانة.. مصر فوق الجميع.

وبعصبية شديدة صرخ فيه نوح :

– مهلًا يا عوف .. الأمر تعدى ما تقول بمراحل!

نحن في أزمة لا نعرف منتهاها..

– الوطن كما هو في كل الظروف.. وخدامه عليهم جميعًا معرفة من هم السادة.. ومن هم العبيد.

– كلا.. يكفي.. سأخرج لهم وأترككم في سلام!

قالها نوح مستسلمًا رغبةً في إنقاذهم جميعًا.. فلاحقه عوف مانعًا له بحدّة:

– فات أوان ذلك سيدي!

– لا.. لن أتحمل دماءً أكثر من ذلك.

العملية وقد فشلت.. والثوار حولنا في كل مكان..

أتسمعهم..؟؟ سأخرج لهم وأتلقى مصيري!

هجم نوح سقراط على باب الطائرة محاولًا فتحه..

- وأنا أمنعك من ذلك!

أخرج حينها عوف مختار مسدسه، شاهرًا إياه ناحية الرئيس نوح .. لحظات من الصمت، لم يخترقها سوى صوت دقات الطبول والموسيقى المتعالية، وصوت الخبطات المتزايدة بين مقدمة الطائرة ومؤخرتها..

التفت نوح ناظرًا لعوف وقد برقت عيناه.. للمرة الأولى يتخطى عوف حدوده مع نوح.. وبلهجة حازمة:

- لن أسمح لك بهدم كل شيء.. سقوطك يعني سقوطنا!

سقوط مؤسسة عسكرية، يخاف منها القاصي والداني..

إن كنت تريد حقا ترك منصبك.. فانتظر حتى نعود للقصر.. واخرج في خطاب للشعب، وأعلن تخليك عن منصب رئيس الجمهورية وتكليفك للمجلس الأعلى للقوات المسلحة لقيادة شئون البلاد.

- الآن تقول ذلك؟.. ألم أطلب منكم الاستقالة حقنًا للدماء ورفضتم بالإجماع؟؟

- لأنهم لا يريدون سقوطك أنت.. نحن المقصودون!

- وأي شيء اختلف الآن لتقترح ذلك؟؟

- لا أدري.. شل تفكيري.. انتظر وحسب لنفكر.

- أنتظر حتى يقتلوني ويمثلوا بجثتي؟

- أرجوك سيادة الرئيس.. امنحني بعض الوقت لأفكر.

- بعض الوقت!

- مؤكد هناك مخرج ما..

- لا مخرج لكم من هنا إلا فوق جثتي.

وأنا على استعداد لإنقاذكم.. سأدفع عمري فداءً لكم.

- قلت لك امنحني بعض الوقت.

كان عوف في قمة عصبيته.. ساد الصمت للحظات، نظر فيها نوح لنا جميعًا وكأنه يودعنا.. كم أحببته بهذه اللحظات، وهو يريد التضحية بحياته من أجل سلامتنا..

جلس نوح بمكانه مهزومًا حائرًا.. كلها دقائق معدودة، ويقتحم الثوار الطائرة، وحينها سينتهي كل شيء.. سيسقط رغما عن عوف ومؤسسته.. سينتظر قليلًا لربما يجد عوف طريقة للخلاص المستحيل.. أو ليستعيد شريط ذكرياته، قبل استسلامه للموت بصدر رحب.. اغرورقت عيناه بالدموع..

تحرك عزام حينها ناحية أحد الشبابيك بمنتصف الطائرة مناديًا عليّ:

- آدم تعال لتساعدني!

هرعت ناحيته.. كان يحاول انتزاع ذراع مقعده بالمنتصف بقوة!

- لماذا تريد انتزاعه؟؟

- ساعدني وحسب

وبالكاد استطعنا كسر ذراع مقعده..

صرخ به قلقاس:

- لا تحطم طائرتي

- سحقًا لتلك الطائرة!

- عزاااام!

نظر إليه عزام بحدة.. وبعصبية جارفة وجّه عوف مسدسه ناحية عزام:

- ماذا تفعل أيها المخرف؟؟

- سنخرج من هنا.

- سيفتك بنا الثوار أيها المجذوب!

- إن كُتب علينا الموت.. فمرحبًا به.

- توقف وإلا قتلتك في الحال!

صرخ قلقاس بعوف:

- إياك وأن تمسه بسوء!

– سأقتلكم جميعًا أيها الرعاع.

وكأنّ عوف قد جن جنونه.. هجم عليه إسماعيل شمروخ على غفلة منه، وتصارع معه.. تشجع البعض وانقضوا عليه وكأنه فريسة ينهشون فيها بكل مكان تطوله أيديهم.. هجم عليه شمروخ ولاعبو الكرة بأكملهم..

ووقف البعض الآخر يتابعون ما يحدث دون تدخل.. كمجدي فلفل ودندشة وعمرو حليم.. وطبعًا هؤلاء الضباط والجنود المنتمون للشرطة والجيش المشتركون بالعملية.. لم تأتهم الأوامر بالتحرك.. هكذا تعلموا بالأخصّ في لحظات الخطر كهذه.. سالت الدموع من عيني نوح سقراط هامسًا:

– تلك هي النهاية.

رئيس أركان جيشه يُكيل له ضربًا مبرحًا، والثوار بالخارج يتلهفون للفتك به هو الآخر.. ضرب من الداخل والخارج.. كانت الخبطات تتزايد، وتهتز الطائرة بأكملها.. لم يتردد عزام حينها في كسر زجاج شباكها، ضاربًا بتهديدات عوف عرض الحائط..

قام بالخبط على زجاج شباكه الجانبي كثيرًا محاولًا كسره.. كانت دقات أيادي من بالخارج تزداد على جسد الطائرة بشكل مريع، وتمتزج بتلك الهزة المستمرة إثر ضربات المعول بمؤخرة الطائرة، وكأنّ أحدهم يحاول كسر الطائرة من الخارج!

وكُسر زجاج شباك عزام عزام.. الأصوات كانت عالية للغاية فلم يلاحظ أحد ما فعلناه بزجاج ذلك الشباك من الخارج.. أطل عزام برأسه

بحذر شديد يتابع ما يحدث بالخارج، وكنت أنا بجواره أُعاين كل شيء.. لم نصدق ما تراه أعيننا.. كنا بمكان ممتلئ بالصخور.. على جبل عال.. بقمته قلعة حصينة ترفرف عليها أعلام حمراء اللون..

قلعة بديعة من الصخور الصلبة على شكل جمجمة إنسان.. رؤيتها للوهلة الأولى تثير الرعب بالنفس لأقصى حد.. وأنوار تضيء جوانبها بشكل مخيف..

وعلى مرمى البصر بالجهة الأخرى من القلعة.. بيوت صغيرة لا حصر لها من دور واحد، متناثرة بدون ترتيب بين الصخور، ويفصلها مدقات وطرقات ممهدة بعناية، ويحيط بكل ذلك أسوار عالية، تنتهي بباب خشبي ضخم مفتوح على مصراعيه، في منتصف أسفل الجبل..

يبدو أننا هبطنا في المسافة الفاصلة بين تلك البيوت والقلعة.. تلك القلعة التي تكشف المكان بأكمله، من أعلى نقطة بالجبل.. لم يكن ذلك هو الأهم.. ما زاد تعجبنا وريبتنا أنه هناك عدد لا نهائي من الرجال، يملأون المكان حول الطائرة، من ذلك الباب الخشبي الضخم بالأسفل، وحتى القلعة بالأعلى، وكأننا غرقنا في بحر من البشر.. في دوامات لا تنتهي من بني آدم المجهولين بالنسبة لنا.. محال أن يكون هؤلاء ثوار.. هيئتهم وأفعالهم تبرز عكس ذلك تمامًا.. أنوار تتلاعب في كل مكان..

وكأنه احتفال ضخم مليء بالرجال بأعداد لا حصر لها..

موسيقى صاخبة يتراقص عليها الجميع..

همست لعزام:

- هل سقطنا في الساحل الشمالي؟؟

- صه

كان عزام متوجسًا من شيء ما.. تابع بعينيه ما يحدث.. الغريب أنّ هذا الاحتفال خال تمامًا من النساء.. والأغرب أنّ جميعهم يرتدون زيًا موحدًا تقريبا.. جلابيب مفتوحة الصدر حتى السرة وضيقة للغاية.. وتتنوع ألوانها بين الأحمر والزهري والأصفر.. اعتقدت في البداية أنه حفل تنكري..

ولكن العجيب أولئك الرجال المحيطون بالطائرة ذوو الصدور العارية، ممسكين طبولًا ضخمة يخبطون عليها بصوت مخالف لإيقاع موسيقى تلك الحفلة، وكأنهم حقّا يعلنون حربًا على الأبواب.. ورجال آخرون يحيطون بالطائرة من كل مكان، في زي جلدي مخالف لهم.. دققت النظر فيهم.. وكأنهم حرس خاص بزمن بائد.. ظهورهم كانت لنا..

يبدو أنهم انشغلوا بمتابعة الحفل مستمتعين به.. رأيت سيوفًا معلقة بجانب كل منهم.. وعلى رؤوسهم خوذ حديدية، علي مقدمتها رسم لجمجمة تشبه تلك القلعة.. وكأنه شعار موحد لذلك المكان العجيب..

برقت عينا عزام..

همست له مرة أخرى:

- هؤلاء الرجال مظهرهم يثير الريبة.

تمايل الرجال بشكل يثير الغثيان.. كانت صدورهم منزوعة الشعر ملساء تمامًا.. يتراقصون وكأنهم نساء عاهرات.

جحظت أعيننا حينما رأينا رجلًا يتراقص وسط حلقة، تحيط به من الرجال، متخليًا عن ملابسه قطعة قطعة، وكأنه عرض جنسي منفر.. وليس ذلك فقط، بل ورجل أخر يصبّ عليه سائلًا من زجاجة خشبية في يده، يبدو أنّ بها خمرًا..

نظر عزام ناحية مقدمة الطائرة، فشاهد بعضًا من هؤلاء الرجال المخنثين، يخبطون جسدها الأمامي بقبضات أيديهم، وأحدهم يصرخ مناديًا طوال الوقت:

– هلموا يا رجال.. فقد أرسل إلينا الإله قربانًا

يُثني على أفعالنا.. هلموا فهو يشبه معشوقنا..

هلموا فالمسوه.. وإن شئتم فادعكوه.. وإن شئتم فقبلوه.. هلموا.. هلموا.. قربان الإله.. هلموا..

كان هناك بعض منهم يقبل جسد الطائرة.. والبعض الأخر يلعق مقدمتها، ككلاب تلعق وجبتها الوحيدة بالحياة..

وامتزجت الأصوات والمشاهد أمامنا.. من أولئك الراقصين على مدى البصر وأولئك اللاعقين والمتمسحين بمقدمة الطائرة.. حتى الحراس المحيطين بنا من كل مكان وقارعي الطبول.. وتلك القلعة الحصينة ذات الأعلام الحمراء.. سيطر الذهول علينا حينما ظهر أمامنا رجل، ممسكًا بميكروفون خشبي عجيب، موصول بسماعات مصنوعة من الأحجار

المجوفة، تعكس الصوت بقوة، وعلا صوته فوق كل تلك الأصوات العالية:

– حفل ليالي سدوم.. الليلة الواحدة والعشرون..

يحيى الحفل.. نجم سدوم الأول.. النجم الذي طال انتظاره

معشوق الرجال.. النجم تيتي والع..

صفق حينها الجميع، وصرخوا مرحبين بنجمهم المفضل، الذي شقّ صفوفهم وبدأ يغني لهم ليتراقصوا أكثر وأكثر..

– مهلًا مهلًا يا إخوان.. سحقًا سحقًا للنسوان..

مهلًا مهلًا يا غربان.. أهلًا أهلًا بالفتيان

وصلة غنائية عجيبة شبيهة بأغاني الراب.. لافتات متناثرة مكتوب عليها عبارات كبيرة وواضحة:

"سدوم ترحب بكم"

"حفل ليالي سدوم"

"السدومية للجميع"

التف حينها عزام عائدًا للطائرة، ومازال البعض يضربون عوف مختار بكل قوتهم بغلّ وقسوة.. كان نوح ممسكًا بقميص قلقاس بعصبية، وكأنه يترنح بين اليأس والغضب مرارًا وتكرارًا:

– أين وعودك بالتنقل عبر الزمن؟؟

ألم تذهب منذ يومين لعام ١٩٥٢، وعدت بتسجيل مصور لرجالي في حفل لأم كلثوم؟؟ هل كان ذلك التسجيل مزورًا؟؟ انطق؟

صرخ فيهم عزام، فتوقف الجميع وقد برقت أعينهم:

- نحن في الأردن على ضفاف البحر الميت..

نحن في الأردن.. على ضفاف البحر الميت

التفت له الجميع.. نهض عوف مختار وآثار الضرب بادية على وجهه، هامسًا بعنف:

- ستدفعون ثمن ما فعلتم كلٌ على حدة..

نظر عوف إلى رجاله من الشرطة والجيش، صارخًا بعصبية شديدة:

- وأنتم ماذا تنتظرون..؟؟..اقتلوهم في الحال.. أولئك الرعاع!

- فليكفِ يا عوف.. فليكفِ.. هؤلاء أهلنا.. نحن منهم.. كفوا أيديكم عن أسلحتكم.. ولنفهم ما يدور حولنا قبل أي شيء.

قالها نوح سقراط بحدّة متناهية.. ملتقطًا طوق نجاة مؤقت ألقاه عزام منذ برهة.. كان قلقاس مرتابًا فيما يحدث.. الآن صحت شكوكه.. تركهم متجهًا ناحية الكابينة باحثًا عن جهازه الصغير.. صرخ به نوح :

- إلى أين أيها العالم الكذوب؟؟.. قف وأخبرني..

- سأخبرك أنا سيدي الرئيس.. دع قلقاس وشأنه!

كانت الخبطات تزداد، والطائرة تهتز أكثر وأكثر..

- تفضل.

- نحن انتقلنا بالزمن حقّا كما وعد قلقاس!

- ماذا..؟؟ ألم تقل أننا فقط ضللنا المكان، وهبطنا بالأردن بدلًا من مصر؟؟

- كلا.. ضللنا المكان والزمان!

- في أي زمان نحن..؟؟

نظر عزام للجميع.. كان يعلم أنّ ما سيخبرهم به، سيصفع عقولهم ويرعبهم:

- تقريبا عام ١٥٠٠ قبل الميلاد!

- سُحقًا لك يا قلقاس.

توالت ردود أفعالهم جميعًا:

- تبّا لذلك

- يا الله!!

- لله الأمر من قبل ومن بعد!

- اهدأوا.. مؤكد سيعيدنا عمي مرة أخرى.. هذا مجرد عطل استثنائي أليس كذلك يا عزام؟؟

نظر إليّ عزام صامتًا.. هرع حينها قلقاس جريًا من ناحية الكابينة لاهثًا مبرق العينين:

– جهازي يقول إننا في عام ١٥٠٠ قبل الميلاد

ولكن الطائرة بخير لأننا اصطدمنا بالنيزك في اللا زمن

اصطدام كهذا كان حتمًا سيقودنا إلى الهلاك ولكن لحسن الحظ

أنه حدث خارج نطاق الزمن..

فقط حدث تغيير مسار غير مقصود..

أمسك عوف مختار بقلقاس من وجهه غاضبًا صارخًا بقوة:

– أيها العالم المخرف.. من دفع لك لتفعل بنا ذلك؟؟

أرسلوك لتنفينا بعيدًا عن زمننا وتخدعنا؟؟

– أنا لم أخدع أحدًا.. اتركني!

تدّخل عزام ليفض بينهما النزاع..

– فليكفِ.

نظر عزام إلى نوح سقراط:

– عذرًا سيادة الرئيس.. أنت لا تعرف حجم المصيبة التي نحن فيها!

– أية مصيبة أخرى يا عزام؟؟

قالها نوح متوجسًا.. فألقى عزام القنبلة الأخيرة في وجوههم:

- نحن بقرية سدوم.. إحدى قرى قوم لوط، المذكورة في القرآن الكريم!

صرخوا جميعا بآن واحد:

- قوم لووووووووووووووووووووووووووط!!

- أعوذ بالله من غضب الله.

قالها الشيخ عيسى ممتاز غاضبًا..

- أعوذ بالله من غضب الله.

***

زادت حدة الطبول ودقاتها عاليًا.. أُوقفت الموسيقى الصاخبة الراقصة، وكف رواد ذلك المكان عن الرقص مترقبين شيئًا ما.. أحد الرجال أصحاب الزي الجلدي حاملي السيوف يمسك ببوق ضخم، ينفخ فيه صوتًا يشبه بروجي العسكر..

ورجل آخر يمسك الميكروفون صائحًا:

- مولانا الملك المعظم.. الملك بارع.. ملك سدوم

صاح الراقصون يحيونه، بينما اقترب موكب من الخيول، قادمًا من القلعة الحصينة، وتغيرت الموسيقى لأخرى ملكية، متداخلة مع دقات الطبول

المتتالية.. مجموعة من الحراس يتوسطهم رجل في الخمسين من عمره ذو هيبة.. مرصعة خوذته بالذهب والياقوت الخالص، وسترته من الفضة، الممتلئة بفصوص الزمرد الأخضر المتلألئ.. شق طريقه بزهو وانتصار، وسط جموع المخنثين.. اقترب من جسد الطائرة أمام أعين الجميع، وهبط من فوق حصانه.. توقفت أعمال الكسر والخبطات حينها.. مد يده مربتًا على الطائرة مبتسمًا.. صاح شعبه اللعين:

- يعيش الملك بارع..

- يعيش الملك بارع.. يعيش الملك بارع.

كان هناك منصة عالية بالقرب من الطائرة، مصنوعة من الخشب.. صعد درجاتها ووقف سعيدًا مشيرًا لهم بالتحية:

-أشكركم.. أشكركم شعبي العظيم.

أشار لهم بالصمت.. نظر بوجوههم الواحد تلو الآخر، والدموع بعينيه:

- شعبي العظيم.. شعب سدوم.

كم عانينا من الظلم والبهتان! اثنا عشر عامًا تحت سطوة مملكة عيلام.. تلك المملكة المنتشرة بدءًا من الأحواز وحتى البصرة، مرورًا ببلادنا ومدينتنا..

وذلك الملك الفاسد المدعو كدر لعومر.. المتربع على عرش تلك المملكة..

من فرض علينا الجزية طوال هذه المدة!

الآن أُعلنها لكم.. هُزم كدر لعومر ملك عيلام على يد قواتنا الباسلة..

وتحررت سدوم من سطوة مملكتهم أمد الحياة.. وليس نحن فقط..

بل: سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوييم، وصوغر.

خمس مدن متجاورة تتزعمها سدوم.. مدينتكم الغالية.

اليوم يوم الاحتفال.. يوم الاستقلال.. فلا تكفوا عن الرقص والغناء والشرب حتى مطلع الفجر..

افعلوا ما تشتهيه أنفسكم.. فكما ترون قربان الله إلينا، احتفالًا بفوزنا على الأعداء!

أشار ناحية الطائرة.. أشاع الملك بارع بواسطة رجاله أثناء التجهيز لاحتفالهم، أنّ الله أرسل لهم قربانًا، ليخبرهم أنه راضٍ عنهم تمام الرضا..

كانت عيلام مملكة قديمة وعاصمتها مدينة شوشان الواقعة بإيران.. ومن أقوى حكامها الملك كدر لعومر، الذي عُرف ببطشه وسطوته، إذ اكتسح كل ممالك الجنوب، وأخضع لسلطانه كل بلاد وادي الأردن، وبسط حمايته على الطريق الرئيسي بين دمشق ومصر.

خضعت له البلاد، وبعد اثنتي عشرة سنة إذ شعرت بالمذلة، قام خمسة ملوك بالثورة ضده حتى لا يدفعوا له جزية، هم ملوك سدوم وعمورة وأدمة

وصبوبيم وصوغر، فاضطر كدر لعومر أن يقوم بحملة ثانية، لتأديب هؤلاء الملوك المتمردين، وقد تحالف معه ثلاثة ملوك آخرون، هم ملوك شنعار والأسار وجوبيم.. وقد اكتسح هؤلاء الملوك الأربعة المنطقة.

وإذ تركزت الحرب بجوار سدوم فبالرغم من مناعتها الطبيعية، انهزمت بسبب الفساد الذي حطمها، واضطر الملك بارع إلى الهرب، بينما سقط نبي الله لوط وعائلته أسرى، وصارت ممتلكاتهم غنيمة.. ولكن نبي الله إبراهيم خرج على رأس ثلاث مائة رجل وثمانية عشر، وهاجم جيش كدر لعومر أثناء الليل، واسترجع غنائمهم ولوطًا وأسرته..

بينما أشاع الملك بارع أنه هو من فعل ذلك، ليسيطر على شعبه أكثر وأكثر..

ذكرت تلك الحادثة بسفر التكوين في الكتاب المقدس..

"أَن هؤُلاَءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنْآبَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشِمْئِيبَرَ مَلِكِ صَبُوييمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوغَرُ.. جَمِيعُ هؤُلاَءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ.. اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكدر لعومر، وَالسَّنَةَ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ.. فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُوييمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ.. مَعَ كدر لعومر مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُوييمَ، وَأَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ. أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَعَ خَمْسَةٍ.. وَعُمْقُ السِّدِّيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا

سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ.. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا.. وَأَخَذُوا لُوطا ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ.. فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَن أَخَاهُ سُبِيَ جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ.. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ.. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ".

ابتسم الملك بارع لشعبه أثناء خطبته، والدموع تنثال من عينيه بخشوع مصطنع وكاذب.. مشيرًا ناحية الطائرة:

- هذا القربان هو أكبر برهان لصحة شهوتكم.

وليس كما يقول ذلك المدعو لوط بأنّ الله يغضب لأفعالنا..

وأنا أقول له: إن كان الله غاضبًا علينا، فلماذا انتصرنا على أعدائنا؟؟

لماذا أرسل إلينا ذلك القربان الظاهر فجأة بمدينتنا؟؟

والذي نتشوق مثلكم لمعرفة ما يحويه ذلك القربان من الداخل؟

كانت الأصوات تتناثر إليه من كل مكان فرحين مهللين:

- يحوى طعامًا يكفينا لشهر بأكمله.

- يحوى خمرًا ونبيذًا.

- يحوى حلوى من الجنة.

- بل يحوى رجالًا من السماء نسعد بصحبتهم.

قالها أحدهم فضحك الباقون بخلاعة ومجون..

شاركهم بالضحك الملك بارع..

ثم قاطع ضحكاتهم هاتفًا بحماس:

- فلترحبوا معي بالملوك المجاورة:

الملك برشاع ملك عمورة

الملك شنآب ملك آدمة

الملك شمئيير ملك صبوييم

وملك صوغر.

دخل حينها موكب كبير من الخيول وراكبيها، من الباب الخشبي أسفل الجبل صاعدين لأعلى، مخترقين جموع الشعب السدومي، متجهين للملك بارع ناحية المنصة.. صفق الجميع لهم.. صعد الأربعة فوق المنصة مصافحين الملك بارع، ثم وقف الخمسة بجوار بعضهم البعض رافعي الأيدي لأعلى، والجميع يهتف:

- يعيش الملك بارع.. يعيش الملك بارع

قاطعهم بارع بصوت جهوري:

- يعيش الملوك الخمسة.. يعيش الملوك الخمسة

فرددها وراءه ذلك الجمع اللعين:

- يعيش الملوك الخمسة.. يعيش الملوك الخمسة.

- والآن شعب سدوم العظيم.. وضيوفنا من المدن المجاورة.

الحليفة العزيزة على قلوبنا جميعا.. استكملوا حفلكم.

وكلوا واشربوا، وافعلوا ما تشتهون دون رقيب..

وأنتم يا جنودي الأعزاء.. استكملوا أعمال كسر ذلك القربان.

لنستقبل سويّا هدية الله إلينا.. شعب سدوم العظيم..

أحبكم.. دمتم بخير.

صفق له الجميع.. عادت الموسيقى الصاخبة كما كانت، وعادوا للرقص والتخلي عن ملابسهم.. هبط الملك بارع من المنصة بصحبة الملوك الأربعة.. همس له الملك شنآب قلقًا:

- لم يكن ضروريًا أن تُلقى خطبة كهذه.. فربما يصل ذلك لكدر لعومر ويعاود محاصرتنا من جديد!

- سيفكر كثيرًا قبل مهاجمتنا مجددًا.

- ولكن يا بارع نحن بالحقيقة هُزمنا من جيشه الجسور.

وفررنا أمام جحافل رجاله.. وأنت بالذات وقعت في آبار الحُمر.

وأُنقذت بأعجوبة.. ولولا أسر لوطً وأهله بجيش كدر لعومر، لما تحرك أبرام عمه بقيادة ثلاث مائة وثمانية عشر رجلًا.

وهاجموا جيوش كدر لعومر بغسق الليل، وهزموهم واستعادوا غنائمهم وأسرانا، وسط تعجبنا نحن الخمسة..

- ومن يعرف هذا الكلام غيرنا نحن..؟؟

- لوط وأبرام والثلاث مائة وثمانية عشر رجلا..

- لا يعنيني أي منهم.. فجميعهم من خارج مدننا.

ماعدا لوطًا وعائلته.. ولن يُصدق له قول هنا..

انظروا حولكم يا ملوك المدن..

أهؤلاء يصدقون من يسمح لهم بكل شهواتهم أم من يريد منعها عنهم؟؟

- وإن عاود كدر لعومر؟؟

- عدنا ندفع له الجزية..

- حسنًا.. فلنشرب نخب الانتصار إذن!

- أحسنت يا برشاع.. فلنحتفل مع شعوبنا الماجنة.

وامتزجت ضحكاتهم جميعًا.. عاد الرجال يضربون بمطارقهم على جسد الطائرة الخلفي.. رغبة في كسره.. ولم يكف قارعو الطبول عن ضرباتهم المستمرة.. هرع أحد الرجال الراقصين ناحية جسد الطائرة، لاعقًا لها مخمورًا مترنحًا.. بينما وقف آخر يهتف ويردد وراءه الآخرون:

- ملك سدوم.. ملك سدوم.

– ملك سدوم.. ملك سدوم

– حبيب الكل..

– ملك سدوم

– أب الكل..

– ملك سدوم

– كبير الكل

– ملك سدوم

– ملك سدوم.. ملك سدوم

– ملك سدوم.. ملك سدوم

كان الملك بارع يحييهم بيده، وسط جموع المخنثين هامسًا:

– خير لنا أن نحكم ثُلةً من الفسدةِ والأشرار

على أن نحكم الأخيارَ وأعفّاءَ النفس.

***

ما زالت الطبول تعلو أصوات دقاتها، ممتزجة مع موسيقاهم الصاخبة، خالعة قلوبهم من بين الصدور بالقوة الجبرية خوفًا من مصير خَرِب.. احتفال ملعون.. وكأنه إعلان ضخم لعرض جنسي بخلفية موسيقية عسكرية فريدة الطراز.. وكأن السدومية هي شعار دولتهم البائدة.. يتفاخرون بها، ويدقون لها طبول جيشهم.. كان الجميع يختلسون النظر لما يحدث بالخارج، من خلال شباك عزام المكسور بحذر شديد..

لحظات شديدة الصعوبة تمر عليهم جميعًا.. حالة من القلق والتوتر الشديدين.. كفت عقولهم عن التفكير في مخرج من تلك الأزمة، فما يعاصرونه لا يتحمله عاقل.. بات الوضع أشد خطورة من مجرد ثوار غاضبين.. مجرد التخيل بما سيفعله بهم هؤلاء القوم بالخارج إن طالتهم أيديهم، يعصر قلوبهم رعبًا..

وقف عوف مختار وآثار الضرب تملأ وجهه بمنتصف الطائرة كالمجذوب.. نظر إليه رجاله مشفقين، بينما بادله إسماعيل شمروخ نظرات التشفي والسخرية.. فلم ينس أبدًا تلك الفترة التي سُجن فيها ظلمًا بالماضي، لمجرد تفكيره بالترشح للرئاسة منذ اثني عشر عامًا.. لُفقت له قضية مالية كبرى وخرج منها بأعجوبة بعد انتهاء الانتخابات..

كان يعلم تمامًا أنّ عوف مختار هو المحرك لكل الأحداث في الخفاء.. وكأنه الحاكم المستتر للبلاد.. لم ينس اللقاء الأول بينهما، بعد خروجه من تلك الأزمة بمكتبه بقيادة الجيش.. لم ينس تلك السخرية بعينيه وهو يصافحه:

- سيد إسماعيل شمروخ.. نحتاج إليك في الرياضة أكثر.

- وما علاقتي بالرياضة سيدي الفريق؟؟

- سيكون لك شأن بهذا المجال من اليوم.

- إن كنت تحب السياسة، فهذا ما نريدك أن تخطو تجاهه.

- وهل الرياضة سياسة؟؟

– نعم.. كرة القدم بالأخص من أهم ركائز السياسة المجتمعية.. سنعلمك كل شيء.

ولكن الأهم لدينا ألا تخرج عن الطريق المرسوم لك.. أعتقد أنك تعلمت الدرس جيدًا.

– أشكرك يا عوف بك.

– سيادة الفريق عوف مختار.

لا أحب الألقاب يا عزيزي.

– عذرًا سيادة الفريق.. سأكون عند حسن ظنك دائمًا.

لم ينس إسماعيل شمروخ ذلك طيلة السنين الماضية.. كيف قهره عوف وسحق أحلامه بالرئاسة بمنتهى القوة دون رحمة.. حلم راوده كثيرًا.. أن يتولى شئون هذه البلد، ويعلو بها لصفوف الأمم المتقدمة.. رئيس مدني حبيس صناديق الحكم العسكري لينتهي به الأمر بالنهاية لرئيس نادي شهير..

لم يتخيل أبدًا تلك النهاية المُزرية لأحلامه.. بل والأكثر من ذلك.. بات عصا لينة بيد تلك السلطة الكاره لها يحركونها باتجاه من يشاءون.. يهاجم هذا ويهادن هذا ويصارع هذا.. كلٌ بأوامرهم وتوجيهاتهم.. أصبح مسخًا كريهًا لا يقوى على النطق أو العصيان..

ولهذا السبب استغل أول فرصة للانتقام من عوف مختار ضربًا تحت أقدامه بلحظات ضعف استثنائية وشاركه بذلك لاعبوه، الذين قام باختيارهم

بعناية ممن يحملون الضغائن للسلطة الحاكمة، كلٌ على حدة لأسباب مختلفة، يجمعها ضعف الحيلة وصعوبة المعيشة وغلاء الأسعار.. فلم يكن أولئك المختارون من مشاهير اللاعبين.. بالعكس كانوا من الصغار الناشئين، بنواد مختلفة صغيرة..

فتلك خطة وضعها عوف، وهو ساعده بتنفيذها كما يجب..

وقف عوف مختار وكأنه أمام كاميرات التلفاز، يلقى خطابه العسكري الأول:

– بسم الله الرحمن الرحيم.. بيان عسكري رقم واحد

من المجلس الأعلى للقوات المسلحة.. انطلاقًا من مسئوليتنا والتزامًا بحماية الشعب المصري ورعاية مصالحه وأمنه وحرصًا على سلامة الوطن والمواطنين.. وبعيدًا عن أي أهواء شخصية لا مكان لها في الوضع الراهن.. قررت القوات المسلحة الانحياز لإرادة الشعب ومن يمثلونه بهذه الطائرة..

قاطعه نوح سقراط:

– أي شعب يا عوف.. وأي وطن؟؟

نحن قبل زماننا بثلاث آلاف وخمسمائة وخمسين عامًا..

كانوا يهتزون بشدة.. ضربات معاول سكان تلك القرية اللعينة، تصر على كسر جسد الطائرة الخلفي.. صرخ قلقاس بنوح:

– تصرّف يا سيدي.. كل لحظة تمر هنا تضيع فرصتنا في النجاة.

– لا فائدة.. سيفتكون بنا..

قالها عزام متوترًا.. فتبعه إسماعيل شمروخ محاولًا التهدئة:

– اهدأوا.. لا تخافوا.. على الأقل هم ليسوا ثوارًا

لو كنا محاطين بالثوار لكان الوضع أشد خطرًا

– إنهم أشد خطورة من الثوار يا إسماعيل..

لو تمكنوا منا لضاعت رجولتنا إلى الأبد!!

قالها نوح فزاد من توترهم أجمعين.. صرخ بهم عيسى ممتاز:

– أعوذ بالله من غضب الله.. المثلية شرٌ لا يُمحى..

.. والله خير لنا أن نموت الآن

قبل أن يمسونا بسوء.. اقتلنا يا سيادة الفريق.. اقتلنا!

كان يوجه حديثه لعوف مختار الصامت تمامًا..

قاطعه أنور أبو النجا:

– المثلية ليست حرامًا شرعًا.. هؤلاء القوم هلكوا لأنهم اشتغلوا بالحرابة وليس لأنهم مثليون..

– أعوذ بالله من غضب الله.. والله ما أضاع تلك المهمة العسكرية سوى ذلك النجس بيننا..

– لا أسمح لك بمهاجمتي أيها الشيخ!

– لعنك الله في كل كتاب.

– شيخ مخرف.

– فليكفِ.. اصمتا

صرخ فيهما عوف مختار..

تابع عيسى حديثه والدموع تملأ عينيه:

– أنتم لا تدركون حجم مصيبتنا.. نحن بزمان هالك لا محالة.

هؤلاء القوم ستصيبهم لعنة الله بما يفعلون.. وسيموتون عن بكرة أبيهم ونحن هنا معهم.. سيصيبنا ما يصيبهم.

– ولماذا نموت، وقد نتمكن من الهرب بعيدًا عن هنا؟؟

قالها عوف محاولًا الخروج بهم من المأزق، وكأنه وجد حلًا لتلك الأزمة!

نظر إليه نوح متسائلًا:

– بعيدًا عن هنا؟؟

– نعم بعيدًا عن سدوم.. فلنفر إلى مصر الفرعونية.

– لو هربنا لن نتمكن من العودة لزماننا مجددًا.

أجابه إبراهيم قلقاس.

– كيف؟؟

– أريد بعض الوقت لإصلاح تلك الطائرة، من آثر التصادم ومن آثار خبطاتهم تلك اللعينة.

- أتستطيع ذلك؟؟

سأله نوح وفد برقت عيناه.

- نعم سيدي الرئيس.. فقط أمهلني بعض الوقت.

- وقت؟؟ أي وقت؟؟ كلها دقائق معدودة ونقع في قبضتهم.

.. سحقًا لذلك.. السدوميون من ورائنا والموت من أمامنا.

حالة من اليأس تصيب الجميع.. كنت جالسًا على مقعد جانبي أتابعهم في صمت.. أنتظر الموت في هدوء.. وأي موت أكثر من البعد عن حبيبتي رضوى شاهين بأكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين عامًا..؟؟

كل ما كنت أشعر به في هذه اللحظات هو الاشتياق إليها.. أريد الارتماء في أحضانها ولو لدقيقة واحدة وبعدها أستسلم للموت بهدوء وخنوع.. فالموت في حضرتها أمان لا يُقهر..

كنت أتذكر وجهها، ملامحها الجميلة، عينيها الخاطفتين، وشفتيها الحنونتين.. كم أشتاق لقبلة أودع بها هذه الحياة الصاخبة.. هل كتب عليّ الموت منفيًا عن حبيبتي بزمان قوم لوط؟؟ سحقًا لهذه الدنيا التي تصرّ على قهر أحلامي واستعباد قلبي..

أيها الموت.. هلم لتحصد روحًا وترحل بها بعيدًا عن هذا العالم الموحش دونها.. هلم لتصحبني لعالم آخر.. لأنتظر به حبيبتي في هدوء وسلام حتى تقوم الساعة.. فموت ساكن خير من هذه الدنيا وما فيها، بدون حبيبتي رضوى!

كنت أراها بين وجوههم المتوترة.. أعلم أنها حلم جميل وخيال مستحيل.. ولكنني أراها الآن.. أرى ابتسامتها الساحرة فتشعرني بالأمان.. فبنهاية الموت لقاء في الآخرة.. سأنتظره أبد الدهر..

الله غفور رحيم، وسيرحم فرقتنا بهذه الدنيا.. سيجمعنا بعد فراق طويل.. أؤمن بذلك.. اقتربت مني رضوى مخترقة هلعهم، ووقفت أمام عيني.. مدت يدها وتلمست وجهي بأناملها وتنهدت.. يا الله.. كم أحبها.. نظرت في عينيها ودموعي تتساقط:

- أحبك

- وأنا أعشقك

كانت بفستان زفافنا المأمول.. عشقت خيالي لأول مرة.. رقص قلبي فرحًا متغاضيًا عن كذب تلك اللحظة.. استسلمت لخيال كاذب لعلها المرة الأخيرة قبل الموت.. قبلتني قبلة طويلة.. ذابت لها آلامي وأحزاني ببعدي عنها..

حاولت كتم أنفاسي لعلي أموت هذه اللحظة على قبلتها.. لأموت وأبعث على شفتيها.. ولكنني لم أستطع الموت..

مدت يدها لي وهي تغتال عقلي:

- أتراقصني؟؟

- هنا؟؟

- نعم.. رقصة زفافنا

نهضت معها.. خطوت معها وكأننا بقاعة زفاف استثنائية.. تعلق قلبي بيديها وغاصت روحي ببحر عينيها مستسلمًا لأمواجها العاتية.. رقصنا وسط أبواق موتهم المنتظر..

همست بأذني:

- أتحبني لهذا الحد؟؟

- لو أن لي إرادة.. لتمنيت أن أصبح ذلك العقد المتدلي بين نهديك.

- لماذا؟؟

- لألامس جسدك طوال عمري.. لأستمع إلى دقات قلبك.

وأشعر بالأمان طالما حييت.

- وأنا لم أعشق سواك.

- ابحثي عن حروف حبك في صفحة قلبي.. فلن تجدي سواكِ.

- هل سنلتقي مجددًا؟؟

نظرت إليها متعجبًا:

- ما معنى سؤالك؟؟

- لا تكن ساذجًا.. أعرف أنني الآن من نسج خيالك!

- نسج خيالي؟؟

- نعم.. ما يحدث بيننا الآن غير حقيقي.

مجرد خيال تتمناه أرواحنا.. أتعلم؟؟

أنا الآن جالسة بزماني أفكر فيك، وأعيش نفس إحساسك هنا..
أتخيلك ببدلة زفافنا.
- كم من الآلام تحصدها أرواحنا ونحن نستحق الأمان.
فقط الأمان بجوار بعضنا البعض.
- لم تجب على سؤالي..؟؟
هل سنلتقي مجددًا..؟؟
- مؤكد.. وإن كان الموت أقرب إليّ الآن منك.
ولكنني سأنتظر لقاءنا..
اسجدي لله ليلًا ونهارًا داعية بأن يجمعنا بالآخرة.
- أتظن ذلك؟؟
- نعم.
كانت تترك يدي.. تبتعد.. تغيب عن عيني.. كنت أُناديها:
- رضوى.. انتظري.. ابقي بجواري حتى أموت.
- أتظن ذلك؟؟
كنت أصيح مناديًا عليها بعدما اختفت، وعدت إلى أرض الواقع الأليم:
رضوى.. أرجوك.. انتظري.. رضووووووووووووووى.

كنت حينها بمنتصف الطائرة.. وكانوا جميعهم حولي ينظرون لي متعجبين.. كانت الاهتزازات تزداد لحظة بلحظة.. سادت بيننا لحظات من الصمت منتظرين ما لا تتحمله الأنفس..

فكلها دقائق ونقع في أيدي هؤلاء السدوميين.. سيفتكون برجولتنا لا محالة.. لن يثنيهم شيء عن ذلك مهما صرخنا.. وبالنهاية سنموت بصحبتهم ملعونين من الله..

قطع تلك اللحظات العصيبة السيد عوف مختار رئيس الأركان ملقيًا لنا طوق نجاته الأخير:

- لدي الحلّ الأمثل للخروج من هنا بسلام!

برقت أعيننا.. اقترب منه نوح سقراط متلهفًا:

- ما هو حلّك يا عوف؟؟

- قبل أي شيء.. عليكم بتنفيذ أوامري دون تردد.

أو سؤال عما أفعل.. فقط عليكم الطاعة.. بما فيهم أنت يا نوح !

نظرنا إلى بعضنا البعض.. ليس أمامنا حل أخر.. أشرنا له بالإيجاب:

- نحن معك.

- سنفعل ما تأمر به.

- أرجوك أخرجنا من هنا سالمين!

– لله الأمر من قبل ومن بعد.

– لك ذلك يا عوف.. ما حلّك إذن؟؟

قالها نوح سقراط مستسلمًا لعوف..

نظر إلينا بثقة وغرور.. وبعينين ثاقبتين قال مبتسمًا:

– قبل أي شيء.. هناك تعديل بالعملية صقر!

– أي تعديل؟؟

رفع عوف سلاحه حينئذ وقام بإطلاق الرصاص على رأس إسماعيل شمروخ، ولاعبي الكرة الواحد تلو الآخر.. فسقطوا غارقين في دمائهم، وفارقوا الحياة بلحظة واحدة وسط هلع الباقين..

– هل جننت يا عوف؟؟

صرخ فيه نوح.

– لا حاجة لنا بلاعبي الكرة ولا مدربهم في عمليتنا!

اقترب بعدها من أنور أبو النجا المرتعش خوفًا.. وبابتسامة خفيفة ناظرًا في عينيه قال:

– عذرًا يا أنور.. وجودك بهذه المهمة بعد التعديل سيُفشلها.

وأطلق عليه رصاصتين في بطنه، فسقط هو الآخر جاحظ العينين مفارقًا الحياة.

لحظات من الصمت المطبق، قطعها عوف مبتسمًا:

– والآن استمعوا لأوامري جيدًا حتى نخرج.. ليس من هنا فقط.. ولكن حتى نعود لنكمل عمليتنا العسكرية بسلام.. وكأن شيئا لم يكن!

وقفنا جميعا ننتظر طوق نجاته المزعوم.. رائحة دمائهم الممتزجة تملأ المكان.. وتخضب أرجلنا جميعا.. وكأن عوف مختار يرسل لنا رسالة واضحة كالشمس.. هؤلاء من فكروا ووقفوا أمامه، واعتدوا عليه في لحظات ضعفه.. ها هو يقتلهم بمجرد تملكه لزمام الأمور مجددًا..

وكأنه يقول لنا:

– إياكم والعصيان.. فأنا لا أنكسر.. ودائمًا أعود للقمة مهما تعثرت.

سدوم

(١٥٠٠ عام قبل الميلاد)

وبدأت العملية البديلة.. العملية نسر.. هكذا أطلق عليها رئيس أركان الجيش المصري "عوف مختار"، الواقف بينهم كالأسد الهصور، ناظرًا في أعينهم بثبات، وسط اهتزازات لا تنقطع بطائرتهم، الموشكة على اغتصاب لعين.

– والآن.. أيدرك كلٌ منكم دوره، في العملية نسر؟؟

– تمام يا فندم!

كانوا يجيبونه كجنود يستعدون لأكبر عملية عسكرية، تتعلق بحياتهم جميعًا.. صرخ فيهم بقوة وعنفوان القائد الجسور:

– لم أسمع.

– تمام يا فندم.

نطقوها بكل حماس ممكن.. صاح بهم أكثر:

– أين همتكم؟؟

– تمام يا فندم.

كان صوتهم عاليًا عنيفًا يرج الطائرة من الداخل.. كانوا يتحركون كجنود الأمن المركزي في أماكنهم.. يدبون أرجلهم على الأرض بإيقاع ثابت.. وكنت أنا أقلدهم وأتعلق بحماسهم.. إحساس يتسلل لنفسي لأول مرة..

لم أخدم بالجيش لأنني ولدت وحيدًا يتيمًا.. ولم يصبني ذلك الشعور من قبل.. شعلة حماسية تتأجج داخلي وكأنني سأحارب الصهاينة كفرد مقاتل بجيش إسلامي..

كنت أدرك أن ما يحركني هو الأمل.. الأمل بالنجاة والعودة لإكمال العملية صقر، ومن ثم إنهاء مهمتنا والقضاء على الحرب الأهلية، والعودة لوطني مصر الذي ولأول مرة، أشعر بمدى حبي الجارف له، بعد نفينا بعيدًا عنه وعن زماننا بثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين عامًا..

سافرتُ بلادًا عديدة ولم أشعر بما يجتاح نفسي الآن.. ربما لأنني لم أُهدد بعدم العودة لذلك الوطن الحبيب حينها.. ولكنني الآن مهدد بذلك، ولذلك سأُقاتل لأعود.. سأحارب أولئك المخنثين رغبة في الخلاص وحفاظًا على رجولتنا..

كنت أتوسطهم وكذلك إبراهيم قلقاس وجميع المدنيين بالمكان، حتى الرئيس نوح انضم لصفوفنا، معلنين البيعة لعوف مختار قائد العملية نسر، بعد إبعاد جثث إسماعيل شمروخ ولاعبيه وأنور أبو النجا، فوق بعضهم البعض بأحد جوانب الطائرة.. صرخ فينا عوف مختار:

– الصيحة..

– هه.. هه.. هه.. هه.

ورحنا في نوبة من الصيحات المتكررة، شبيهة بصيحة جنود الأمن المركزي.. نوبة من الحماس المفتون بالنجاة:

– سنخرج من هنا.. وسننتصر

وستنجح العملية نسر.. وسنعود

لنكمل العملية صقر.. أهناك خائف بيننا؟؟

– لا يا فندم..

– جبان؟

– لا يا فندم

– سننتصر

– الله معنا.

– العملية كبيرة

– الله أكبر.

– لم أسمع

– الله أكبر

– الصيحة

– هه.. هه.. هه.. هه.

كان عمرو حليم ومصوره يقفان بجوارنا، يصوران ما يحدث بالكاميرا تبعًا لأوامر عوف، لنقل تفاصيل العملية للشعب المصري بعد عودتهم مجددًا لزماننا.. أمسك عمرو حليم بالميكروفون بحماس طاغٍ..

– هذا وقد سقطت طائرة السفر عبر الزمن المتجهة لإنقاذ الوطن، والقضاء على الإخوان الإرهابيين واقتلاع جذورهم من بدايتها، سقطت بقرية سدوم قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين عامًا، بعد اصطدامها بنيزك مفاجئ..

ومن المعروف أنّ تلك القرية، هي إحدى قرى قوم لوط المذكورة في القرآن الكريم.. وقد أعلن سيادة الفريق عوف مختار رئيس أركان الجيش المصري مسئوليته عن تلك الأزمة وعلى الفور أصدر أوامره بسرعة تنفيذ عملية بديلة تُدعى العملية نسر، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وسط هؤلاء المخنثين القابعين لنا خارج الطائرة..

والجدير بالذكر أنّ المجموعة الحالية خرجت على متن الطائرة، كمحاولة أخيرة لإيقاف الحرب الأهلية عام ٢٠٥٠، ولكن جاء السقوط بقرى قوم لوط ليهدد الجميع..

سنتابعكم أولًا بأول.

ابقوا معنا..

صاح بهم عوف ليُأجج حماسهم:

– لا فرق الآن بين أي منكم.. عسكري أو مدني جميعكم بخدمة الوطن وإعلاء كلمة الله وتنفيذها.. أمستعدون؟؟

– أرواحنا فداء للوطن يا فندم.

– والآن.. فلتبدأ العملية.. تحركوا.

حالة من الحماس المنظم بيننا.. كلٌ يعرف ما يفعل.. جرينا لالتقاط أسلحة نارية وُزعت علينا بالكامل.. انقسمنا إلى خمس مجموعات.. كل مجموعة تقريبًا عشرون شخصًا.. وركبنا فوق خمس دبابات مدججين بالأسلحة.. وصعد خمس سائقين على دباباتنا الخمس من أولئك الجنود المصاحبين لنا بالعملية..

نظر إلينا عوف بثقة وثبات.. صاح بقلقاس:

– مستعد يا قلقاس؟؟

كان عمي واقفًا متحفزًا عند كابينة الطائرة.. أجابه بصوت عالٍ:

– نعم.

افتح الباب الخلفي.. وأركض نحونا سريعًا.

فتح حينها باب الطائرة الخلفي المسئول عن الشحن.. لحظات لا تنسى.. ذلك الباب ينفتح داعيًا لنا بالاندماج، وسط زمن سحيق محكوم عليه بالفناء

واللعنة.. نسمات الهواء تجتاحنا ونحن على تلك الدبابات، كلهيب مستعر بانتظارنا ولكن لا مفر.. علينا بالمحاولة.. فالطريق إلى الجنة يملأه الأشواك.. هرع قلقاس ولحق بآخر دبابة، وصعد عوف في المقدمة صارخًا:

– هجووووووووووووووووووووووووووم

وانفرطت حبوب زماننا في زمانهم العتيق.. ولا ندري هل سنعود مجددًا أم أنها النهاية؟؟

ولكن الأكيد أنها أسفار جديدة، تكتبها أرواحنا المنطلقة من هذه الطائرة، الجاثمة وسط جموع المخنثين السدوميين.. كنا نصيح عاليًا:

– الله أكبر.. الله أكبر.

أطلقنا النيران بشكل عشوائي على جموعهم.. دهسناهم تحت دباباتنا.. أصوات عظامهم النجسة تُسحق تحتنا.. نسمع حطامها أعلى من صرخاتهم.. وقامت قيامتهم فجأة.. كنا أشبه بجحيم مفاجئ تذوقوه بغتة.. كعذاب الله المنتظر لهم.. جحظت أعينهم وهم يواجهون الموت، برصاص أسلحتنا وسحقًا تحت دباباتنا.. وهم حتى لا يفقهون شيئًا عن تلك المعدات التي بأيدينا، فآخر ما يعرفونه السيف وما شابه.. كانوا يصرخون:

– لقد عاد كدر لعومر.

– جيوش من الجن مع كدر لعومر.

– اهربووووووووا.

– فروووووووا من الموت.

– لقد عاد كدر لعومر.

باللحظات الأولى توقفت إحدى دباباتنا، ووثبت أنا وعشرة رجال بصحبتي، نشق صفوفهم وجثثهم المتناثرة، وسط آنينهم وصرخاتهم.. ألقينا القبض على ملوكهم بسهولة ويسر.. كانوا مختبئين تحت منصتهم الخشبية.

أولئك الكذابون الأفاكون.. شنآب وصوغر وشمئيير والملك بارع ملك سدوم.. بحثت بعيني عن الملك الخامس صارخًا فيهم:

– أين الملك الخامس؟؟

– لقد فر برشاع.. لقد فر ملك عمورة!

قالها بارع مرتعدًا مما يرى!

– هيا.. أمامنا أيها الأنجاس.

حافظنا عليهم أحياء بسطوة أسلحتنا.. واقتدناهم رهن الاعتقال فوق دبابتي.. ولحقنا بموكب الهجوم الحربي.. موكب الطُهر وسط الأنجاس.. صرخ البعض وهم يفرون بعيدًا:

– لقد وقع الملوك بالأسر..

لقد وقع الملوك بالأسر.

مئات من الجثث تحتنا، نخطو فوقها ناحية القلعة ذات الرايات الحمر.. فر من فر ومات من مات.. صاحت السماء بأصوات رعد متكررة، وكأنها تُثني على أفعالنا.. كنا نصرخ باستمرار:

– الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

وبدقائق معدودة وصلنا للقلعة المنشودة.. كسهام حادة لن تهدأ حتى تستقر بأجساد سدوم عن بكرة أبيها.. اخترقنا أبوابها الحصينة، بعد إطلاق وابل من الرصاص في صدور حراسها وخيولهم.. هبطنا من فوق دباباتنا جميعًا دون مساس.

وقفنا داخل أسوارها المنيعة.. ونجحت خطة الهجوم دون خسارة.. كلنا هنا دون موت.. نظرت ناحية المدينة ولتلك الساحة الممتلئة بجثثهم.. أمطارٌ غزيرة تتساقط لتمحو غبار المعركة الفائتة.. ولتغسل دمائهم النجسة.. وأصوات صرخات من فروا مستمرة بتلك البيوت البعيدة المتناثرة..

لأول مرة في حياتي أُقبل على عمل كهذا.. أشارك في عملية قتل جماعي، دون أن تهتز لي شعرة، بل وتملأ السعادة قلبي لفعل ذلك.. لأول مرة أشعر بأنني أجاهد في سبيل الله.. كنت أعلم جيدًا أنّ ما فعلناه هو الحق.. على الأقل بالنسبة لي!

احتضنني عمي إبراهيم قلقاس فرحًا مبتسمًا:

– سحقناهم يا آدم.. أتشم رائحة دمائهم؟

– حمدًا لله على سلامتنا.

دخل البعض القلعة، وبقي آخرون مدججين بالأسلحة، يحرسون مداخل ومخارج القلعة جيدًا كما رتب عوف مختار.

كان الملك بارع يصيح بنا طوال الطريق:

- اتركوني حيًا أرجوكم.. لا تقتلوني!

سندفع الجزية.. سامحوني.

فليسامحني كدر لعومر.. سامحوني.

وكذلك الملوك الثلاثة يولولون كالنساء:

- انتهينا

- يا ليتنا فررنا بعد الحرب الماضية

- انتهى أمرنا

- سنموت.

اقتادهم بعض الرجال للداخل.. ودخلت بصحبة عمي مبهورًا بتلك القلعة.. وأنوارها المشتعلة بعناية فائقة.. مشاعل من النيران مغطاة بزجاج يحيطها لتحميها من الهواء.. ممرات بين الصخور الصلبة، وكأنها بأكملها نُحتت داخل الصخور..

جمجمة مخيفة دخلنا من فمها إلى ساحة كبيرة بالداخل.. أرض شفافة اللون لم أر مثلها في حياتي.. وكأنها مصنوعة من الأحجار الكريمة البيضاء.. كنا نخطو فوقها وسط ذهولنا، وتماثيل من الذهب بكل مكان حولنا..

يا لبريقها الخاطف للأبصار.. كنز هائل يا ليتنا ننال بعضًا منه.. همس لي عمي قلقاس:

– هذه الأرض تحتنا من الزمرد الأبيض!

– زمرد؟؟

– نعم.

كان عزام بالقرب منا.. اقترب مبرقًا العينين مبهورًا بما يرى مُحدثًا قلقاس:

– لا أصدق ما تراه عيناي.

– أترى؟؟

– زمرد خالص.. وتماثيل من الذهب.. ثروة طائلة..

كان هناك كرسي ضخم بآخر تلك الساحة المستطيلة، الممتلئة بالعواميد المصنوعة من الزمرد هي الأخرى.. عرش من الياقوت الأحمر.. يضوى بأعيننا.. وقفنا مذهولين وسط تلك الحوائط الصخرية بين هذه الكنوز..

كان نوح سقراط وعوف واقفين على جانبي ذلك العرش، ينظران له بأعين ملهوفة.. وجهان لعملة واحدة.. السلطة.. رجلان من نفس المؤسسة العسكرية.. ولكنهما مختلفا الطباع.. فعوف يتميز بالقوة والجرأة والقسوة عن نوح.. ولو كان نوح مكان عوف في تلك الأزمة، لما اتخذ القتل وسيلة للخروج من تلك الداهية الكبرى.. كان سيلجأ للحوار والحلول العقلية..

ولعل تلك كانت أزمة خلاف بين نوح وعوف في زماننا.. ولكن الأمر يختلف كثيرًا.. فهنا مخنثون، وبزماننا ثوار أنقياء.. هنا كفرة ملاحدة بحكم الله

والتاريخ، وبزماننا شعب يبحث عن العدل، حتى وإن كان بطريقة خاطئة، ولكنه في النهاية شعب في رباط إلى يوم الدين.. بالإضافة إلى أنّ المتسبب في تلك الحرب الأهلية أيادٍ خفية يعرفونها جيدًا، وبالتالي الشعب بات ضحية لتلك الأيادي النجسة..

فلم يكن هناك مكان للعنف أو القتل إن وجد إلا لتلك الفئات الضالة.. ومع ذلك كان نوح سقراط يُشدد على عوف دائمًا بعدم استخدام العنف، حتى مع أولئك الأعداء المُدبرين للأحداث من وجهة نظره.. الإخوان ومواليهم.. رأى أنّ كل شيء لا بد وأن يقع تحت طائلة القانون.. كلٌ يحاسب بالقانون والدستور..

ولكن عوف مختار كان أكثر قسوة وعنفًا.. لو أن الأمر بيده لقتل كل المعارضة، على الرغم أنه وافق بحكم منصبه على الصلح مع الإخوان، وإطلاق سراحهم من السجون قبل عشر سنوات، واندماجهم بالحياة السياسية مرة أخرى..

صديق الأمس عدو اليوم والعكس صحيح.. تلك هي عقيدة عوف مختار.. واليوم هو مالك زمام الأمور حتى لو كان بزمان يسبق زماننا بثلاث آلاف وخمسمائة وخمسين عامًا.. اليوم هو صاحب القرار الأوحد وعليهم جميعًا التنفيذ..

وبات العنف هو سيد الموقف.. والدم هو لغة الحوار الوحيدة المتاحة.. ورائحته ستفوح بكل ربوع تلك القرية النجسة وكل القرى المجاورة وستخضعهم له لا محالة.. سيخاف من تبقى منهم من الموت.. هذه طبيعة

بشرية.. الإنسان مهما كان فُجوره وظلمه وطغيانه، يخاف من الموت.. وها قد جاء عزرائيلهم.. ها قد جاء عوف مختار..

لم يتردد عوف في التقدم خطوات تجاه ذلك الكرسي الضخم.. وجلس فوق عرشه الجديد حاد العينين منتصرًا واثقًا، ونوح ينظر إليه متمنيًا مكانه.. ولكنه أقسم على طاعته بالأخص بالمرحلة الحالية التي لا تسمح بأي صراع ممكن.. خاطبهم بهدوء تام:

– من الآن هذا عرشي..

وعليكم بالاستعداد لتنفيذ باقي العملية.

لا أريد أية أخطاء.. ما زال أمامنا الكثير..

قطع حديثه الملك بارع المُقيد تحت حراستنا:

– أرجوكم.. اتركوني لأذهب.

– صه أيها الملك اللعين.. ما زال لديك دور في قصتنا.

– أي دور؟؟ عن أي شيء تتحدث؟؟

– لقد حان وقت الحساب..

لاحظ حينها عوف غياب الملك الخامس عن جمعهم..

فسألني بحدة:

– أين خامسهم؟؟

– نجح في الفرار أثناء المعركة.

– تبا لكم.. ألا تستطيعون تنفيذ ما آمركم به؟؟

– يا سيد عوف.. فعلنا كل ما في وسعنا .

– أي الملوك هو؟

– ملك عمورة.. يدعى برشاع.

– حسنًا.. انشروا بعض قواتنا في الأماكن التي حددتها..واستكملوا إنزال معداتنا الحربية من الطائرة.. لن أسمح لكم بمخالفة أي من أوامري فيما بعد.

قطع حديثنا الملك بارع متعجبًا:

– أين الملك كدر لعومر؟؟ أأنتم حلفاؤه من العرب؟؟ أريد مقابلته.

نهض عوف من فوق عرشه، واتجه ناحية الملك بارع:

– أخبرني أيها الملك.. هل لديكم هنا مكان للحجز أو الاعتقال.؟؟

– هذا قصري.. خذوه هدية مني لكم بما فيه.. أرجوكم أتركوني لحالي.

– آددددددددم.

قالها مناديًا عليّ بحدة فأجبته سريعًا:

– نعم.

– خذوه وأصدقاءه الملوك وغلوهم.. وفي سعير المعتقل ألقوهم.

– أي معتقل يا سيدي؟؟

– ابحث عن أي غرفة منعزلة هنا بتلك القلعة، وأحكم وثاقهم أنت ورجالك يا آدم.

– حسنًا.

تحركت ومجموعتي العشرة الأفراد، نجرجرهم للغرف الداخلية مستكشفًا لها.

كنا عشر مجموعات مقسمة كفرق متساوية العدد، وكنت على رأس إحداها قائدًا لهم.. عشر مجموعات يترأسها الآتي أسماؤهم:

– آدم قلقاس.

– إبراهيم قلقاس.

– نوح سقراط.

– عيسى ممتاز.

– مجدي فلفل.

– عزام عزام.

– زغلول الشاطر.

"مقدم شرطة ورئيس مباحث قسم العتبة، ومن أفراد المجموعة الخاصة بالعملية صقر الملتزمين بالصمت والطاعة منذ بدأ العملية".

– فهدة عريبي

"مضيفة الطيران الوحيدة والمعجب بها عوف جدا".

- دندشة.

"الراقصة المثيرة"

- عمرو حليم.

اختارهم عوف رؤساء للمجموعات العسكرية، وسط تعجب أفراده العسكريين. ولكنهم تعودوا على الطاعة العمياء، فلم يعترضوا أن تترأسهم راقصة أو مضيفة ليس لهما علاقة بالأعمال القتالية، أو مدنيون مثلنا نحن، أو رجل دين كعيسى ممتاز.. وعوف بدوره يرأس العشرة قادة ويعطي أوامره لهم، وهم بدورهم يحركون العشرة أفراد تحت قيادتهم.. تقسيم سريع قام به رئيس الأركان بالطائرة قبل الهجوم.

عاد عوف وجلس على عرشه الثمين، ناظرًا إلى أفراد العملية نسر التسعين بعد تحركي ومجموعتي للداخل:

- أريد فرقة منكم تعمل على نقل هذه التماثيل الذهبية إلى طائرتنا حتى ينتهي قلقاس من إصلاحها.

صاح الجميع مهللين فرحين..

هتف مجدي فلفل بحماس شديد، وردد الباقون وراءه ما عدا نوح سقراط:

- عوف مختار.. عوف مختار

- عوف مختار.. عوف مختار.
- أب الكل.
- عوف مختار.
- حبيب الكل.
- عوف مختار.
- كبير الكل.
- عوف مختار.
- عوف مختار.. عوف مختار.
- عوف مختار.. عوف مختار.

تعجب نوح كثيرًا منهم.. فمنذ ساعات كانوا يهتفون له بنفس الهتاف.. عاش الملك مات الملك.. وعلى الرغم من أنهم يعرفون أنه رئيسهم بالمرحلة القادمة وليس عوف.. ولكنهم يهتفون لصاحب تلك المرحلة.. وكأنهم يعمون بصيرتهم عن كل شيء.. قطع نوح هتافهم:

- هذا الكنز من حق الجميع..

وبصفتي رئيسًا للمصريين كافة.. فسأعمل على توزيعه بما يُمليه عليّ ضميري.. ليس لأفراد عمليتنا العسكرية فقط.. ولكن للشعب أيضًا.

نظر عوف إليه نظرة ثاقبة.. تحرك ناحية نوح ونظر في عينيه بحدة:

- أنا الحاكم العسكري الآن.. ولا كلمة هنا تعلو فوق كلمتي.
- أنا أتحدث فيما بعد.

– عزيزي نوح.. بهذه اللحظة الأمر لي.. وقد أقسمت أنت على ذلك في الطائرة.. ألا تتذكر ذلك؟؟

– نعم أقسمت.. ولكن..

– قُضي الأمر.. هذا الكنز لنا نحن.. من خاطرنا بحياتنا لإنقاذ الأمة.. من ضحينا بكل شيء من أجل إيقاف تلك الحرب الأهلية.

وقد كافأنا الله بهذا الكنز.. هو حق لنا فقط.. أفراد العمليتين صقر ونسر هلل الجميع هاتفين بحماس شديد:

– عوف مختار.. عوف مختار.

– عوف مختار.. عوف مختار.

– أب الكل.

– عوف مختار.

– حبيب الكل.

– عوف مختار.

– كبير الكل.

– عوف مختار.

– عوف مختار.. عوف مختار.

– عوف مختار.. عوف مختار.

بُهت نوح سقراط ولم يجد ما يجادل به عوف مختار.. قطع عوف هتافهم مبتسمًا:

– هيا.. افعلوا ما أمرتكم به.. فأمامنا عمل شاق.

– سيد قلقاس.

قالها عوف مناديًا على إبراهيم قلقاس.

– نعم.

– أريد تقريرًا كاملًا عن حالة الطائرة.

– حسنًا.

– الليلة.

– سأحاول ذلك.

– أريدك أيضًا أن تبحث عن لوط.

– النبي لوط؟؟

– نعم.. أريد مقابلته في الصباح.. هنا.

– أوامرك أيها الحاكم.. سأرسل أفرادًا من مجموعتي للبحث عنه.

– بنفسك.

- كما ترى..

- أحسنت.. أحسنت يا قلقاس.

كانت النظرات المتبادلة بين عوف ونوح ممتلئة بالريبة والتوجس.. لم يدرك نوح تفسيرًا لذلك الشعور المتملك منه بهذه اللحظات..

أهي غيرة من عوف؟؟ أم رفض داخلي لعملية القتل الجماعي التي جرت قبل قليل؟؟ وإن كان الأمر كذلك.. لماذا لم يعلنها صراحة برفضه لذلك الهجوم الدموي؟؟ هو حتى لم يجادل..

يعلم جيدًا أن ما قاله بخصوص هذا الكنز، مجرد مناوشة مُفتعلة ضد عوف.. أراد أن تعلو كلمته مُغلفة بالمبادئ وأخلاق الفرسان، المُفكر بعموم شعبه في أحلك الظروف ولكنها سقطت في بئر دهاء عوف باللعب على غريزة الطمع والرغبة بالثراء لكل أفراد عمليتنا.. لم يمر الأمر بسلام..

شيء ما غامض يشعر به نوح ويراه بعيني عوف.. شيء يراه لأول مرة.. وكأن بريق رأس السلطة يُداعب أحلامه، مُتخليًا عن دور الحاكم الخفي وراء ستار الوطن.. تنهد نوح كاتمًا مخاوفه، سيلوذ بالصمت والصبر حتى إشعار آخر.

***

تحركت محكمًا وثاق أولئك الملوك الأربعة وسط أفراد مجموعتي شاهري الأسلحة بوجوههم.. كنت أبحث عن مكان ما منعزل بهذه القلعة لأتحفظ

عليهم.. لم أجد سوى غرفة واحدة كبيرة مُلحقة بالدور الأرضي.. تحوي سريرًا ضخمًا من الذهب.. محاطًا بالستائر البيضاء من كل الجهات.. يبدو أنها غرفة خاصة بالملك بارع لرؤيتي لتمثال يشبهه كثيرًا من الفخار بمنتصف الغرفة.. تمثال عاري الجسد موضوع على رأسه تاج من الياقوت اللامع.. وبابها من الخشب العتيق المحفور عليه جماجم مماثلة الحجم.. نسخ متكررة من الجمجمة الكبرى شعار مدينتهم.. همست ضاحكًا:

– ما قصة هذه الجمجمة المنتشرة هنا بكل مكان؟؟

– الموت لمن يقترب.

قالها بارع بقوة مهددًا ليّ.. فضحكنا جميعًا على كلماته..

اقتربت منه مستهزئًا:

– كيف ذلك وقد وقعتم تحت حكم الملك كدر لعومر اثنا عشر عامًا؟

لم أنس اسم كدر لعومر من كثرة ما استمعت إليه هذه الليلة في هذا المكان.. حاول بارع التفاوض دون جدوى:

– هل يمكننا الجلوس والتحدث بعض الوقت؟

– لا وقت لدينا لك.. هيا.

أشرت لرجالي فتحركنا.. رأيت بعد تلك الغرفة سلالم مستديرة تنبئ بوجود أدوار سفلية تحت الأرض.. هبطنا درجاتها المنحوتة بحرفية عالية

بين الصخور، والمغطاة بالزمرد اللا منتهي.. وصلنا الدور الثاني السفلي.. ساحة شاسعة بين جنبات الجبل.. ومشاعل مضيئة تجعل المكان أشبه بنهار ساطع شمسه للعيان.. غرف زجاجية متساوية الحجم، بينها ممر واحد وبكل غرفة مخدعها الخاص.. أسرة من الذهب في كل منها.. برقت عيناي حينما وقفنا على مدخل هذا الدور العجيب..

في كل غرفة فتاة كعارضات الأزياء.. عاريات متخذات أوضاع مغرية، وكأنهن يدعون من بالخارج لمضاجعتهن.. لهن سحر خلاب لا يقاوم.. اشتممنا رائحة عطرة تفوح بهذا الدور.. لم تصدق أعيننا ذلك الجمال والدلال والغنج المتطاير بعبق هذا المكان.. استمعنا لموسيقى هادئة منخفضة الصوت تساهم بإغرائنا أكثر وأكثر..

تسمرنا بمكاننا للحظات.. بكل غرفة سلة من الفواكه المختلفة، وشعلة من النيران المشتعلة ببعض الأخشاب الصغيرة ويبدو أنها لغرض التدفئة.. عدد كبير من الحسناوات المختلفات.. البيضاء والسمراء والشقراء.. الممتلئة والمكتنزة الجسم.. القصيرة والطويلة.. كل ما تشتهي الأنفس بهذا المكان العجيب..

ساد الصمت بيننا كثيرًا وكأننا غفونا بحضرة جمالهن الأخاذ.. سكرنا بعبق روائحهن الممتزجة.. كلهن يتغنجن بطرق مختلفة تدعوك للرذيلة.. قطعت صمتنا متسائلًا متهامسًا:

- ما هذا ؟؟

أجابني الملك بارع بخبث ودهاء:

– أيعجبنك؟؟

– إنهن رائعات .

– فلتختر من تقضى معها ليلتك إذن.. وأنتم أيضًا.. اختاروا.

قالها محدثًا أفراد مجموعتي.. ولكن دعونا نهرب من هنا.. اتركونا وشأننا وقصري وكل خيراته تحت أمركم!

تماسكت كثيرًا لأقضي على عرضه اللعين، ورغباتنا المتطايرة لأحضان هؤلاء العاهرات.

– سحقا لك.. أنت هنا غارق في الملذات.

وتُحرض شعبك على ممارسة الشذوذ .

– هنا قضيت أجمل ليالي بين أحضانهن.

كلما أتاني الشوق لهن.. أختار واحدة .

وأقضي ليلتي معها أمام الأخريات.. ليشتقن إليّ.. هذا المكان به أغلى ذكرياتي..

ولكنني أعرضه عليكم لأنجو.. أنا وجيراني الملوك.

رفعت سلاحي في وجهه بقوة متغلبًا على إغراءاته:

– أنت تستحق الموت ألف مرة بما فعلت في شعبك.

– ليس لي ذنب بأفعالهم.. هم يريدون ذلك.. عشقوه من تلقاء أنفسهم.. وما فعلت أنا سوى السماح لهم بما يشتهون!

– خسئت.. تحركوا.. فلننزل بهم للدور السفلي. تحركوا من هنا.

تحركنا لنكمل درجات السلم للدور التالي.. همست ناظرًا للخلف لتلك الغرف الساخنة:

– تلك الغرف الملتهبة ستكون فتنة كبيرة للعملية نسر.

أكملنا الطريق للدور الثالث السفلي.. كان معتمًا إلا من شعلة واحدة بآخره.. تحركنا ناحيتها.. حاول بارع كثيرًا إغرائي دون جدوى.. سألني بعصبية بعد أن يئس من تجاوبنا معه:

– ما نقطة ضعفكم إذن؟؟ إذا كان المال والنساء لا يغرونكم؟

– صه أيها الملك الحقير.

– تبا لحلفاء كدر لعومر.. من أين أنتم أيها النورانيون الشرفاء؟؟

قالها بسخرية

– من مصر.. أتعرفها؟؟

– مصريون!!

قالها الأربعة متعجبين ناظرين لبعضهم البعض.

وصلنا حينها إلى باب في نهاية ذلك الممر، بالدور الثالث السفلي تحت الأرض.. صقيع شديد شعرنا به حينها.. باب مغلق بجنزير حديدي سميك وقفل كبير.. سألته:

- أين مفتاح هذا القفل؟؟

- لا أعلم.

- حسنًا.

أطلقت عدة رصاصات ناحية القفل فكسرته.. وفتحنا الباب.. رائحة جثث انقضت على صدورنا فجأة وكأننا على مشارف قبور لم تُفتح لعقود طويلة.. دخلنا بحذر شديد، ممسكين تلك الشعلة المتحركة على الباب الخارجي.. يا لهول ما رأينا..

عدد كبير من الأموات وعظامهم وجماجمهم متناثرة.. جيف حديثة الموت وغيرها تآكلت منذ فترة كبيرة.. صرخت فيهم:

- من هؤلاء الموتى..؟؟

فأجابني بارع باستهزاء وسخرية:

- هؤلاء أقوام كانوا يمرون بمدننا في قوافل محملة بالخيرات.. كنا نسرقها وندعوهم لنضيفهم بطريقتنا ولكنهم أغبياء.. كانوا يرفضون ضيافتنا.. فماتوا كما ترى!

هجمت عليه بعصبية متناهية، ممسكًا إياه من ردائه السميك، وخبطته على حائط معتقله الصخري:

– أيها المجرمون.. أكنتم تجبرون الناس على ممارسة الشذوذ، وتسرقون متاعهم.. لأي بشر تنتمون؟؟

– دعنا وشأننا.

– قيدوهم بجوار ضحاياهم ليذوقوا مما أذاقوهم.

أمرت مجموعتي فنفذوا في الحال رغم مقاومة الملوك الأربعة.. كانوا يصرخون:

– أرجوك.. نريد مقابلة كدر لعومر.. نريد النجاة.. فلتتركونا وشأننا

وخلال دقائق معدودة تركناهم محكمي الوثاق، بين رفات أولئك الضحايا الأبرياء.

تفقدتُ باقي أدوار تلك القلعة العجيبة.. فكان لها أربعة أدوار أخرى متعددة الغرف والأسرة.. كلٌ بنفس الطراز.. وبكل غرفة سلة من الفواكه الطازجة.. ووجدنا بعض الخدم في تلك الأدوار يرتبون كل شيء، ويجهزون الأطعمة بمطبخ بدائي مُلحق بالدور الأخير.. يخزنون فيه اللحوم ويطهونها.. كانوا يعرضون علينا النوم والطعام.. سألت أحدهم:

– ألا تتعجبون لرؤيتنا ؟؟

– وفيم العجب يا سيدي؟؟ اعتدنا على الغرباءمن الأعيان وأصدقاء الملك بارع في كل البلدان

ونحن هنا لخدمتكم وخدمتهم ليس إلا.

– أخبرني.. هل تعرف شيئًا عن تلك الغرفة بالدور الثالث السفلي؟؟

– المعتقل؟؟

– نعم..

– جميعنا يعرفها جيدًا.. ولكن الملك بارع حرم علينا الاقتراب منها مطلقًا.

– لماذا تقع بالدور الثالث؟؟

– لا أفهمك يا سيدي.

– أقصد غرفة كهذه من المنطقي أن تقع بالدور الأخير بعيدة عن الأنظار أو بالأحرى بعيدًا عن القلعة بأكملها.

– لا.. هذه الغرفة كانت على الدوام ممتلئة بنزلائها ممن يمرون بقوافلهم بالقرب من مدننا، أو ممن يأتون ليبحثوا عن ذويهم المختفين، والملك بارع يحب أن يباشر بنفسه استجوابهم، ولذلك جعلها قريبة من غرفته بالدور الأرضي.

– أيعيش الملك بارع هنا بمفرده؟؟

– نعم.. فهو لم يتزوج وكذلك نحن كل من يعمل هنا غير متزوج.

– لماذا؟؟

– وما حاجتنا بالزواج؟؟

– أتشتهون الرجال كشعب هذه المدينة؟؟

– كنا كذلك.

– والآن؟؟

– قُطعت أعضاؤنا على باب تلك القلعة.

إنه شرط رئيسي للعمل هنا!

برقت عيناي لما أسمع..

– ولماذا تقبلون ذلك؟؟

– أغلبنا من الفقراء وقد عانينا كثيرًا من العوز والحاجة ولم يكن لدينا حل آخر.. الفقراء هم الفقراء بكل مكان وزمان.. حتى وإن كانوا من أولئك الشواذ.. ربت على كتفه مشفقًا.. تمنيت أن أنقذهم حقا.. لربما تنجح خطتنا وعمليتنا المُسماة نسر لإنقاذهم بعد إنقاذ أنفسنا.. لربما نغير التاريخ ونحميهم

من شرور أنفسهم.. ونقوم مسارهم الأعوج.. سنرى ماذا تخبئه لنا الساعات القادمة!

***

وساد الصمت المطبق بين جنبات تلك المدينة التي يرفرف الموت فوق رؤوس رجالها تلك الليلة.. مئات من الجثث المُلقاة خارج تلك القلعة الحصينة، يحملها رجال العملية نسر إلى مقبرة جماعية أعدوها خصيصًا لهم خارج الباب الخشبي، بمنطقة رملية تبعد عن الجبل بثلاثة كيلومترات..

كانوا ينقلون جثثهم فوق دباباتنا ويلقونها بتلك الحفرة الواسعة العميقة، بعدما استغرقوا في حفرها ساعتين على أقل تقدير.. أكوام من الجيف أهالوا التراب فوقها، تحت أمطار لا تنقطع وبرد يتسلل إلى عظامهم دون توقف، ولكن عليهم تنفيذ أوامر عوف مختار الحاكم العسكري، واضعين كل ثقتهم فيه لإخراجهم من ذلك الزمان بخير وسلام.

وخرج مُنادٍ فوق دبابته يجوب أرجاء المدينة، صائحًا بسكانها المُحتمين ببيوتهم من أولئك الغزاة المُحتلين لمدينتهم، والقاتلين لبعض رجالها:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. بيان عسكري رقم ٢:

نجحت قواتنا المسلحة المصرية في اقتحام مدينة سدوم عاصمة المدن الخمس.. والسيطرة على قلعتها الحصينة ورفع العلم المصري فوقها.. ونهيب بسكان سدوم والمدن حولها أنّ العنف سيقابل بعنف أكبر الاستسلام هو الحل لكم يا أهل سدوم اللئام.. اخرجوا في الغد مع مطلع الشمس عند

ساحة قلعتكم.. فالحاكم العسكري المصري يريد محادثتكم والحاضر يُعلم الغائب.. يا أهل سدوم اللئام الاستسلام هو الحل لكم.

كررها مرارًا وتكرارًا طوال الليل في ساحات تلك المدينة اللعينة.. سمعه كل سكانها داخل بيوتهم.. كان العلم المصري يرفرف فوق قلعتهم مكان أعلامهم الحمراء.. فلم ينس عوف ذلك.

انفرد نوح سقراط بعوف، داخل غرفته بالدور الأرضي، بعدما أمر بإطلاق سراح أولئك الفتيات العاريات بالدور الأول السفلي، وإخراجهن من القلعة تمامًا.

ابتسم له نوح:

- قرار صائب.

- أي قرار؟؟

- أولئك العاهرات..

- لا مجال لغير ذلك.. نحن هنا للإصلاح.

- أتعتقد أننا سننجح؟؟

- لا تفكر في أي شيء يا نوح.. دع الأمر لي! وثق بأنني سأنجح.

تنهد نوح ناظرًا لعوف مترددًا.. اقترب منه متسائلًا:

- ألا تريد مراجعة قرارك بخصوص الذهب؟؟

– بالتأكيد سأراجعه وسأعمل على تغييره.

– رائع.. هذا الكنز ملك للشعب كله.. سيدعون لنا إن قمنا بتوزيعه عليهم خاصة في تلك الظروف الاقتصادية الصعبة التي يمرون بها..

– أي شعب؟؟

– الشعب المصري يا عوف.. أقصد بعد رجوعنا إن شاء الله ونجاحنا بالعملية نسر وصقر وقضائنا على الإخوان.

اقترب منه عوف هامسًا له:

– نوح.. هذا الذهب ملك لنا نحن فقط.

– ماذا؟؟

– نعم.. ملكي أنا وأنت.. لن يشاركنا فيه أحد.

– ماذا تعني؟؟

– كلامي واضح لا يحتاج للتأويل.. هذا الكنز من حقنا نحن فقط!

– ولكنك قلت!!!

– أشجعهم على طاعتي فقط.

سأُطلعك على سر لأول مرة آن الوقت لتعرفه!

- أي سر؟؟

- لن يعود سوانا إلى زماننا..

نحن الاثنان فقط من سيرجع لعام ٢٠٥٠.

- ما هذا الهراء؟؟

- هذه المجموعة التي قمت باختيارها واحًدا تلو الآخر، سنعتبرهم شهداء الوطن.

- كيف ذلك؟؟

- سنقتلهم قبل رحيلنا الأخير!

- ولمّ هذا الغدر؟؟

- مصلحة الوطن العليا تُحتم علينا ذلك..

لو عادوا بعد نجاحنا في تنفيذ العمليتين سيملأون الدنيا حديثًا وضجيجًا عن تجربتهم وتضحياتهم في سبيل الوطن، وأنت تعرف جيدًا أن تلك العملية سرية للغاية ولا بد أن تظل هكذا.

- وإبراهيم قلقاس؟؟

- سيكون آخر من يُقتل منهم.. سنتركه هو وابن أخيه آدم وصديقه عزام يعودون معنا.. فقط لأنه الوحيد الذي يعرف تشغيل تقنية السفر عبر الزمن.. سنقنعه أن الآخرين تم قتلهم من قِبَل الإخوان، قبل الرجوع بعد تنفيذ كل خطتنا وبعد الوصول.. سنغتاله هو وآدم وعزام!

– أتفعل كل ذلك لأجل الذهب؟؟

قالها نوح متهمًا لعوف، وعيناه ممتلئتان بالريبة والغضب المكتوم.

– كلا.. أفعل ذلك من أجل الوطن.. أما الذهب فهو المكافأة التي أرسلها الله لنا يا عزيزي.

– لم أتوقع أنك بهذه القذارة يا عوف!

– لا تتسرع.. فكلانا في نفس المركب، ونحتاج لبعضنا البعض.

– لن أسمح لك بفعل ذلك ما حييت!

– ليس لك خيار آخر.

– سأخبرهم بخطتك اللعينة.

– لن يصدقك أحد.. سأخبرهم بأنك طامع في الذهب لنفسك وتختلق المشاكل لتناله.

– سنرى!

كانت نظراتهما حادة متبادلة.. تركه نوح وهم بالخروج من الغرفة، ولكن لاحقه عوف، وضربه بمسدسه على رأسه فسقط نوح فاقدًا للوعي.. رمقه عوف بنظرات شيطانية حادة.. ممسكًا سلاحه الناري بقبضته هامسًا:

– عذرًا أيها الرئيس.. غدًا يومٌ آخر.

***

كنت جالسًا أمام القلعة أتابع سير العمل على أكمل وجه.. فقد اقترب البعض من الانتهاء من دفن جثث أهالي سدوم.. بينما خلد البعض للنوم استعدادًا لغدٍ شاق ومتعب كما أخبرنا عوف مختار.. كان بجواري صديق عمي "عزام عزام" والشيخ "عيسى ممتاز"، نحتمي من تلك الأمطار الغزيرة داخل ممر جانبي بالقلعة، وقد أشعلنا بعض الحطب بنيران، تحاول نشر الدفء بيننا في هذه الليلة الشديدة الصقيع.. لا صوت غير نقيض الحطب بالنار، وأصوات الدبابات الحاملة للجثث عن بعد.. كلٌ منا شارد بحاله!

قطعت شرودهما متسائلًا:

– كيف ستُدمر هذه المدينة؟؟

– سيموتون جميعًا بلحظة واحدة.

قالها عيسى مجيبًا على سؤالي.

– كيف؟؟

– سيحل عليهم غضب الله ويموتون.

– الطريقة يا شيخ؟؟ الطريقة؟؟

ابتسم لي عزام:

– هل تعرف مدينتي هيروشيما وناجازاكي؟؟

– نعم.

– تخيل أنك على دراجة بخارية في أحد طرق مدينة هيروشيما.. الشمس ساطعة.. الناس مبتسمة تسعى إلى رزقها وتنعم بحياتها.. وفجأة ترى سحابة في السماء!

وخلال ثوانٍ معدودة مات معها كل شيء.. إنه الجحيم بعينه.

– تقصد أنها قنبلة نووية؟؟

أجابني عيسى نافيًا:

– ستُزلزل الأرض من تحتهم.. وتنقلب مدنهم.. سيصبح عاليها سافلها..

– زلزال؟؟

قطع عزام الطريق على أسئلتي المتعددة بهذا الشأن.

– لا أحد يعرف بالتحديد الطريقة التي عُذبوا بها.. قد يكون بركانًا.. زلزالًا.. قنبلة نووية من صنع الله، ولكن الأكيد أنهم ماتوا عن بكرة أبيهم.

– إذا جاء أمر الله.. لن يفلح أحد في إنقاذهم.

قالها عيسى ممتاز.. فنظرت إليه مستفسرًا:

– ولكننا هنا لننقذهم!

– طريق الصلاح موجع والنفس تهوى الفجور.

– سنجبرهم.

– لن ننجح.

قاطعنا عزام متعجبًا:

– ما هذه الثقة يا شيخ عيسى؟؟

– لن نغير شيئًا كتبه الله عليهم!

– لا.. قد ننجح.. هم عوقبوا على ممارسة الشذوذ والمجاهرة به ونحن سنُصلح لهم ذلك، ونرشدهم إلى الطريق المستقيم رغمًا عنهم.. فما الداعي إذن للعقاب؟

– أنت عجيب يا شيخ.. إن كنت تفكر بهذه الطريقة.. فلماذا أنت معنا في هذه الرحلة منذ البداية؟؟

قلتها متسائلًا.

– لأقطع الشك باليقين.. لأثبت لنفسي أن القدر لا يتغير.

– أنتم هكذا دائمًا.

– نحن من؟؟

– علماء الدين والشيوخ!

– لا أفهم.. ماذا تقصد يا آدم؟

– الشرور حولنا في كل مكان وأنتم لا تتحركون!

فقط تكتفون بالدعاء في صلواتكم.. وتقنعون أنفسكم أنها إرادة الله..

– فيم تجادل أنت؟؟ هؤلاء فسقة فجرة، حق عليهم العذاب منذ ثلاثة آلاف سنة وأكثر..

من نحن لنغير ذلك؟؟

أنتأله على الله والعياذ بالله؟؟

– لا تأخذ حديثي بمنحى آخر، لتُعجزني عن الرد عليك يا شيخ.

– ماذا تريد يا آدم؟؟

– أخبرني يا شيخ عيسى.. ألا تعلم أنّ هناك شواذًّا بزماننا؟؟

شواذًّا وقتلة وقوّادين وعاهرات، لمن يدفع بلّ وملحدين بالأديان ماذا فعلت أنت وأمثالك لتغيير ذلك؟؟ أم أنكم تنتظرون عقاب الله؟؟

– نحن دعاة حق.

– لمن تخطبون في المصلين يوم الجمعة؟؟

إن كان عذاب الله واقع لا محالة فأنتم أول مستحقيه!

كنت غاضبًا بشدة، وامتلأت عيناي بالدموع في آن واحد، خوفًا من مستقبل محفوف بغضب الله هنا وهناك.. فعيسى ممتاز مثله مثل كثيرين يهتمون بالدين الظاهري، ولا يحاربون لنشر تعاليمه الصحيحة، وهو خصيصًا راح في حكايات وتكهنات علامات يوم القيامة الصغرى منها والكبرى.. يأجوج ومأجوج.. والمسيح الدجال.. والدابة وغيرها.. كنت مستاءً من شيوخ زماننا بصفة عامة.. فضّ عزام اشتباكنا:

– اهدأ يا آدم.. اهدأ وسننجح في تغييرهم.

– سيتغيرون.. ولو بالقوة!

قلتها ناظرًا لعيسى شذرًا.

كان عزام وعيسى وجهين متضادين في معتقداتهما.. فعزام رمز للعلم المؤمن بإمكانية حدوث أي شيء.. كل شيء قيد التجربة مهما عظم أمره.. وعيسى رمز للدين بقواعده الثابتة التي لا تتغير تحت أي ظرف ممكن.. وكنت أنا بينهما حائرًا.

حقًّا.. كل ما يُقلقني: هل سنغير أولئك العصاة الفجرة؟؟ هل سننجح بذلك لنؤخر عقاب الله لهم حتى لو كان ذلك لمدة قصيرة؟؟

إلى أن ينتهي إبراهيم قلقاس من إصلاح طائرتنا.. هل ستتحقق نبوءة عيسى ونفشل؟؟

سألتهما:

– متي حدث ذلك العقاب تحديدًا؟؟

أجابني عيسى بآية قرآنية:

– ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾.

حدد لنا الله توقيت عذاب أولئك القوم بشكل غير مباشر.

العجل هو مولود البقرة في شهره الأول.. وولادة البقر تكون في أواخر الشتاء عادة.. لتوفر العشب والعلف بفصل الربيع فتتمكن من الأكل وإرضاع مولودها..

إذن أتي العقاب في ذلك التوقيت، حيث إنه لا تجارة في الشتاء ولا قوافل ولا يوجد في المنطقة إلا أهلها.. ليحق عليهم وحدهم العذاب.

نظرت للسماء الممتلئة بالسحب، وتلك الأمطار التي لا تتوقف متمنيًا النجاة.. همست لهما:

- ربما في شتاءٍ أخر غير هذا؟

- وربما هذا هو الشتاء الأخير!

كان عيسى قاسيًا بكلماته عليهما.. صاح فيه عزام بقوة:

- فليكفِ يا شيخ عيسى.. تفاءلوا بالخير تجدوه.. فليكفِ!

***

مر الوقت ومازال نوح غائبًا عن الوعي في غرفة عوف الجديدة بتلك القلعة.. وكأن القدر يهدده بموت فجائي هنا في زمن غير زمنه، على يد رفيق دربه عوف مختار.. أحكم عوف وثاقه فوق كرسي من الذهب كان في الغرفة، مستخدمًا تلك الستائر كحبال حول يديه وقدميه، مُغلقًا فمه هو الآخر.. وقف ينظر إليه كثيرًا قبل أن يصيح فيه بعصبية:

- أحمقٌ غبي..

اقترب منه ممسكًا إياه من رأسه المتدلية:

- أتعرف يا نوح.. حلمتُ كثيرًا بمنصبك.

كنت أحق منك برئاسة الجمهورية.. للحق شاركت بصنع قرارات عدة بمنصب رئيس الأركان.. ولكنني لم أستطع إقناعهم بترشيحي للرئاسة، كانوا يريدونك أنت.. وجه جديد على الشعب، رئيس مدني ذو خلفية عسكرية.. مع أن الشعب يعرف أننا جميعًا سواء.. نفس المؤسسة الحاكمة، اختاروك أنت وامتنعوا عن الوقوف بجواري! حتى بعد الثورة عليك وإعلان الحرب الأهلية، رفضوا تنازلك عن الحكم للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، في هذه النقطة هم على حق.. فقد أثبتت هذه الطريقة فشلها سابقًا.. ولكن هناك حل آخر.. حل أقسمت على تنفيذه رغمًا عنهم بعد ظهور قلقاس وتقنيته المبهرة.. أتعرف ما هو؟؟ سأنقلب عليك عسكريًا، وأتولى بدلًا منك الحكم عنوة لفترة قصيرة. سأُحاكمك وأُرشح نفسي للانتخابات، بعد التخلص من كل المعارضين ليّ بالمجلس العسكري.. سأغير تاريخي طوال الخمسة عشر عامًا الماضية. سأختار المقربين والأصدقاء ليشغلوا المناصب الحساسة.. سأُصبح وجهًا جديدًا مثلك بإعلامي.. سأحشد ورائي الشعب المصري، مُقنعًا إياهم بأنني المُنقذ الوحيد وسأصير رئيسًا لهم، بعد القضاء عليك وعلى الإخوان ومواليهم.. وعلى كل المعارضين.. سأستغل تقنية قلقاس لحسابي على أكمل وجه.. ما رأيك بهذه الخطة؟؟

مد أذنه اليسرى ناحية فم نوح الغائب عن الوعي، وكأنه يستمع لجوابه الغائب:

– ماذا؟؟ الحرب الأهلية لن تبقى بعد اختفاء الإخوان؟؟

..سأصنع غيرها حتى أتولى الرئاسة. وبعدها سينعم الجميع بالهدوء والأمان.

لن أقتلك الآن.. فما زلت أحتاج إلى وجودك ولكنك من الآن قيد الاعتقال.. سأخبر الجميع أنك حاولت قتلي وسيصدقونني وفي الغد بعد خطابي الأول لشعب سدوم.. ستلحق بملوكهم في المعتقل.. لا تخف لن تموت الآن.

قالها هامسًا في أذنيه، وخرج من الغرفة مُغلِّقا بابها الخشبي.. كان متوترًا للغاية.. وجد إبراهيم قلقاس في انتظاره.

جلس على عرشه متسائلًا:

– هل لديك أية أخبار جديدة؟؟

– نعم.

– أسمعك.

– لوط.

– انطق.

– رفض مقابلتك.

– ماذا؟؟

– قال إنه لن يُقابل الغزاة مهما كان.

– ألم تخبره بما نريده فيه؟؟

– أخبرته أنك تريده حاكمًا على هذه المدينة الفاسقة ليطبق شرع الله وينشر دينه بقوة سلاحنا.

– ورفض؟؟

– نعم.. قال إنّ الدين النصيحة ونحن قتلنا الناس بدون وجه حق.

– تبا لذلك.

نهض عوف من فوق عرشه قلقًا.. تحرك ذهابًا وإيابًا يُفكر في تلك الخطة التي تتغير رغمًا عنه.. كان يُخطط أن يُبلّغ هذا الشعب المُدنس، بولاية لوط عليهم في الصباح.. كتم عوف غيظه ناظرًا إلى قلقاس:

– اسمع.. أرسل بعض رجالنا إليه وضعه قيد الإقامة الجبرية!

– أضع من؟؟

– لوط.

– عفوًا يا سيدي.. إنه نبي الله!

– أعرف ذلك.. هذا الرجل هو دليل لأماننا هنا.

– كيف؟؟

– سيرسل الله له رسله ليرحل هو وعائلته عن تلك المدينة قبل تدميرها..

هب أننا لم نفلح في إصلاح الطائرة.. سنعرف حينها موعد عقاب الله ونفر معه.

– لا تخف.. اعطني أربع أو خمس أيام لإصلاح الطائرة.

- افعل ما أمرتك به دون نقاش!

- حسنًا سيد عوف.

- تفضل!

وخرج إبراهيم قلقاس على رأس مجموعته متجهًا لنبي الله لوط، واضعًا إياه قيد الإقامة الجبرية.. ترجل عوف لشرفة القلعة صاعدًا درجاتها لأعلى.. نظر للسماء الغاضبة راجيًا منحه بعض الوقت للخروج من هذا المكان بأمان..

نظر إلى رجاله الحاملين للتماثيل الذهبية ناحية الطائرة متنهدًا.. واقترب بزوغ الفجر مُعلنًا نهاية تلك الليلة العصيبة.

ليلتهم الأولى في تلك المدينة الملعونة.. سدوم.

***

ما زلتُ شاردًا حزينًا بمفردي بعد ذهاب عزام وعيسى إلى داخل القلعة بحثًا عن مكانٍ للنوم بالأدوار السفلية.. لم أستطع النوم قلقًا طوال هذه الليلة..

تداعت ذكرياتي أمام عينيّ كشريط سينمائي.. كان شوقي لرضوى يقتلني.. مجرد التفكير بالبعد الزمني بيننا يشعرني بعجز لا يوصف..

اغرورقت عيناي بالدموع حينما خطر على بالي فكرة آلمتني كثيرًا.

ماذا إذا فشل عمي بإرجاعنا إلى زماننا؟؟

ماذا لو فشلنا في القضاء على الحرب الأهلية؟؟

يا لله!!.. كم نعجز نحن البشر عن إدارة شئوننا!..

– أرجوك تدخل يا الله!

قلتها ناظرًا للسماء، باحثًا عن أحضان الله الافتراضية لأتدثر بها.. ليتني أحضرت معي مصحفًا صغيرًا لأقرأ فيه الآن.. كم أشتاق لذلك.

وانتهى الجميع من أعمال الليل، وبات الفجر على أبواب تلك المدينة مُستعدًا للبزوغ.. وخلدوا جميعًا للنوم ولو لبضع ساعة..

سمعت موسيقى أغنية "تخونوه" لعبد الحليم حافظ.

نهضت مذهولًا متعجبًا.. من أين تأتي هذه الموسيقى؟؟

ظهرت فهدة عريبي، في تلك الساحة خارج القلعة تحت الأمطار، مرتدية فستانًا أسود اللون مكشوف الصدر ضيقًا.. يُكسبها إثارة أكثر مما هي عليه.. خرجتُ من باب القلعة مُتجهًا ناحيتها.. كان جسدها مثيرًا تحت الأمطار.. سألتها:

– ماذا تفعلين هنا الآن؟؟ ومن أين تأتي هذه الموسيقى؟؟

ابتسمت لي فهدة، واقتربت مني في بطء مثير وقبلتني في خدي الأيسر.. اقتربت أكثر من شفتي وطبعت عليها قبلة طويلة، استسلمت لها.. لم أمنعها كالمسجون حيًا في قبرٍ ضيق، لا أقوى على الحركة فيه، أو حتى على الصراخ.. ولكنني شعرت بسمٍ يسرى في دمائي.. وكأنني أُقبل أفعى شديدة السم.. انتفضت فجأة متخلصًا من قُبلتها، دافعًا إياها بكلتا يدي صارخًا:

– ابتعدي

ما زالت الأغنية تتردد موسيقاها في أرجاء ذلك الجبل.. نظرت في عيني بإغراء منقطع النظير.. عضت شفتها السفلى بعهر لا يُوصف.. حاولت تقبيلي مرة أخرى فدفعتها ثانية بقوة:

– أنا أحب رضوى.. ولن أرضى بغيرها!

– نحن بزمان آخر.. فلتستمتع بمن تُعاصرك

أنت تعجبني منذ الوهلة الأولى التي رأيتك فيها.

– ابتعدي عني!

لم أُدرك في هذه اللحظة هل ما أراه حقيقي أم أنها مجرد هلوسات يجسدها عقلي الباطن أمام عيني.. فما زلت افكر في أولئك العاهرات البضة بالدور الثاني السفلي.. جزء ما في داخلي يجذبني، لقضاء ليلة بين أحضانهن كما كنت في الماضي، قبل توبتي على أبواب محراب رضوى شاهين.. وكأنه الشيطان يحاول معي مرة أخرى.. ربما تكون فهدة هي الأخرى، مجرد خيالات غير حقيقية ارتبكت بشدة ..

صرخت بأعلى صوتي:

– لن أتراجع عن توبتي

ابتسمت فهدة أكثر وتعالت الأغنية..

ظهر حينها على المنصة العالية التي صعد عليها الملك بارع قبل ساعات.. فرقة موسيقية تعزف الأغنية على آلات موسيقية.

أمسك مجدي فلفل الميكروفون، ووقف على المنصة، وغنى الأغنية بطريقة المهرجانات..

فرقة موسيقية مرتدية بدلًا سوداء اللون براقة.. امتلأت الساحة فجأة بالأنوار المتلاعبة، وكأن الحفلة عادت من جديد.. كانت الفتيات العاهرات يملأن الساحة عاريات مغريات.. وكل أفراد العملية صقر يرتمون في أحضانهن، سكارى بغنجهن المتزايد.. حتى عمه إبراهيم قلقاس..

لم يقاومهن سوى الشيخ عيسى، الواقف في منتصف الساحة وسط فُجورهن، معلنًا إقامة الصلاة:

– الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أنّ محمد رسول الله

حي على الصلاة حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله.

كان صارخًا بعلو صوته فوق ضحكاتهن.. وسقط جميع رفقائي بعهرهن..

هرعت لأقف خلف الشيخ عيسى لأُصلي وراءه، محاولًا مقاومة شيطاني..

سجدنا سويًا ونهضنا في الركعة الثانية.. اقترب مني عمي ضاحكًا ممسكًا بجسد إحدى العاهرات بيديه، موجهًا كلامه إليّ دون أن أنظر إليه:

– الفرصة لن تأتي مرتين.. اغتنم السعادة قبل فوات الأوان..

سجدت للمرة الثانية راغبًا بالفرار.. كنت أُجاهد كل شيء حولي.. كنت أحبها بشدة أكثر من أية مغريات.. خفتت الموسيقى شيئًا فشيئًا واختفت ضحكاتهن.. نهضت من سجدتي الطويلة، فوجدتني وحيدًا تحت الأمطار بمنتصف الساحة.. واختفى كل شيء من حولي وكأنه لم يكن.. سقطت دموعي مرة أخرى، وسجدت لله مناجيًا:

- الغوث يا الله.. الغوث.

سهام مارقة

(١٥٥٠ عام قبل الميلاد- فجر اليوم الثاني)

وشقّ نور الصباح ظُلمة الليل، مطاردًا لها بسماءٍ ممتلئة بالسحب الركامية، منذرة بغياب الشمس خلفها.. وأحتشد القوم أمام القلعة وكأنّ على رؤوسهم الطير، صامتين مترقبين ظهور الحاكم العسكري، الذي غزي بلادهم الليلة الماضية من أعلى نقطة في جبلهم.. من قلعتهم المُحتلة.. ملأوا الساحة حتى الباب الخشبي الكبير، وخلفه على مدى البصر.

فقد جاء البعض من المدن القريبة المجاورة، ممن وصل إليهم نبأ ذلك الغزو العجيب.. وقفوا رجالًا ونساءً يراقبون في صمت.. كان الرجال أغلبهم بجلابيب ضيقة تشبه ملابسهم في الليلة السابقة، ونساؤهم بعباءات فضفاضة أغلبها قاتمة اللون، شعورهن خشنة متسخة وكأنهن نسين أنفسهن لنسيان رجالهن لهن..

توقفت الأمطار تمامًا، وتراصت الدبابات أمام القلعة لتفصل بينهم وبين عوف ورجاله..

خرج بعضنا في الشرفة الأمامية وكنت أنا أتقدمهم.. ثمانية من القادة العشرة المختارين للعملية نسر..

آدم قلقاس.. إبراهيم قلقاس.. عيسى ممتاز.. دندشة.. فهدة.. مجدي فلفل.. عزام عزام.. وزغلول الشاطر.. وباقي مجموعاتنا فوق الدبابات مُدججي الأسلحة..

وفي تلك الغرفة بالدور الأرضي يقف نوح سقراط، مُتلصصًا من الشرفة عما يجري، بعد استرداده لوعيه ونجاحه بفك وثاقه.. وقف متوعدًا لعوف مختار بعد مواجهة الأمس، فقد سمع كل ما صرح به نوح في غيبوبته المؤقتة، وقرر بعد تفكير عميق أن يُلاعب عوف بطريقته، ويخبره أنه اقتنع بوجهة نظره بخصوص الذهب، حتى تنجح العملية صقر.

وحينها سيعتقله قبل أن يمس أحدًا بسوء كما نوى..

المكر هو سلاحه المستقبلي في هذه المرحلة.

وقف عمرو حليم على مقربة من الشرفة الرئيسية أمام كاميرته، مُعلنًا لحظة البداية:

- أعزائي المشاهدين صباح الخير..

ما زلنا ننقل لكم أحداث غزو قرية سدوم..

نحن الآن في انتظار الحاكم العسكري السيد عوف مختار في لقائه الأول مع أهالي سدوم.. وكما نرى الجنود البواسل وقادة العملية نسر يجهزون لهذا اللقاء

ابقوا معنا..

بدأنا حينها بإلقاء النشيد الوطني بكل حماس، كما قرر لنا عوف قبل ظهوره:

بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي
مصر يا أم البلاد أنت غايتي والمراد
وعلى كل العباد كم لنيلكِ من أيادِ
بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي
مصر أنتِ أغلى دُرَّة فوَق جبين الدهر غُرَّة
يا بلاديَ عيشي حُرَّة واسلمي رغم الأعادي
بلادي بلادي بلادي لكِ حبي وفؤادي
مصر يا أرض النعيم سدت بالمجد القديم
مقصدي دفع الغريم وعلى الله اعتمادي
بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي
مصر أولادك كرام أوفياء يرعوا الزمام
نحن حرب وسلام وفداكِ يا بلادي
سوف تحظى بالمرام باتحادهم واتحادي
بلادي بلادي بلادي لكِ حبي وفؤادي

وشق تجمعنا حينها عوف مختار الحاكم العسكري لهذه الفترة العصيبة.. وقف صامتًا للحظات، ناظرًا لتلك الوجوه العفنة المُطَالَب هو بإصلاح خطاياها اللعينة.

– بسم الله الرحمن الرحيم.. أعلم أنكم تتساءلون من نحن وماذا نريد منكم؟؟ بل وتعتقدون أننا أتباع للملك كدر لعومر الذي عانيتم تحت سطوته اثنتا عشر عامًا..

والآن أخبركم الحقيقة.. نحن لا علاقة لنا بكدر لعومر على الإطلاق.. نحن مصريون من بلاد الفراعنة ونريد بكم الخير..

ساد الهمس بينهم، وهمهمات متعالية قطعها عوف:

- اسمعوني جيدًا.. يا شعب سدوم.. لقد حق عليكم عذاب الله نتيجة لأفعالكم الشاذة.. فوالله إن لم تتبعوا ما نأمركم به فستهلكون عن بكرة أبيكم.. من ماتوا منكم بالأمس سنعتبرهم شهداء ضحوا بحياتهم في سبيل إنقاذ مدينتكم وأهلها..

والآن أعلن لكم أنا الحاكم العسكري للبلاد هذه القرارات.. قرارات خارطة مستقبل مُشرق يضمن مجتمعًا سدوميًّا قويًّا:

١- إعلان حالة الطوارئ بسدوم وما يجاورها من القرى فكل من فيها مُعرض للاعتقال والمحاكمة العسكرية إن لم يمتثل لأوامرنا.

٢- حظر التجول الإجباري بكل أنحاء القرية بعد الثانية ظهرًا حتى فجر اليوم التالي.

٣- ممنوع منعًا باتًّا التجمهر لأكثر من عشرة أفراد وإلا سيُعاقبهم القانون بتهمة محاولة قلب نظام الحكم.

٤- الحكم في البلاد عسكري خاضع للدستور المصري.

٥- صرف لباس حديدي خاص جبري لكل الرجال بأقفال مُغلقة لا تنفتح إلا مرة واحدة باليوم بالمراحيض العامة وستشرف لجنة من القوات المسلحة على تنظيم ذلك بينكم.

٦- على كل نساء القرية الخضوع لدورة تدريبية لكيفية التعامل مع رجالها أثناء ارتدائهم لتلك الألبسة الحديدية لتؤدين مهامهن الزوجية على أكمل وجه.

٧- ممنوع منعًا باتا اجتماع رجلين بمكان واحد لأكثر من خمس دقائق للضرورة القصوى، ويكون ذلك تحت حراسة قواتنا المسلحة.

٨- إعدام كل من تسول نفسه بممارسة الشذوذ أو عصيان تلك الأوامر النافذة.

٩- إعدام الملوك: بارع وشنآب وشمئيير وملك صوغر بتهمة إفساد العباد مما يندرج تحت الخيانة العُظمى لبلادهم والحكم غيابيًا بإعدام الملك برشاع لنفس التهم وتكليف قواتنا المسلحة بالبحث عنه.

١٠- إنشاء هيئة للشرطة لتُنظم شئون يومكم وتحكم في مظالمكم.

١١- إعلان التعبئة العامة بجيش سدوم، والتجنيد الإجباري لكل الرجال حتى عمر أربعين عامًا، وخضوع جيش سدوم تحت قيادة وتدريب قواتنا المسلحة المصرية.

١٢- تعيين السيد آدم فؤاد قلقاس بمنصب والي سدوم تحت قيادة الحاكم العسكري للبلاد.

انتهى.. وعلى الجميع الانصياع والله الموفق والمستعان.

تفاجأت كثيرًا للبند الأخير من خطبته تلك.. لماذا يضعني في هذا الصراع العجيب..؟؟ كان اتفاقنا جميعًا على تولي النبي لوط هذا المنصب لقدرته على التعامل مع أولئك القوم.. تبا لتلك المفاجأة.!

صرخوا حينها بهتافات شديدة:

– يسقط الغزاة القتلة.. يسقط الغزاة القتلة

صاح بهم عوف بغيظ:

– صه.. اصمتوا وانصرفوا إلى دياركم..

واستعدوا لتنفيذ أوامري..

كانوا غاضبين بشدة..

تعالت أصواتهم المتداخلة رفضًا لبيانه العسكري:

– لن ننفذ أي شيء!

– اقتلونا ها هنا قبل أن تقمعونا هكذا.

– لن نرتدي أي لباس!

– حرية.. حرية

– يسقط الغزاة القتلة..

– سحقًا للغزاة.. سحقًا لكم

تعالت هتافاتهم الغاضبة، ووقف عوف متوترًا أمام موجات عصبيتهم الزائدة.. همس زغلول الشاطر الواقف بجوار عوف في الشرفة:

– لنقتل بعضهم فيخاف الباقون..

حالة من الهرج والمرج سادت بالساحة الشاسعة.. صرخوا بأصوات غاضبة:

– هلموا لتستعيدوا مدينتكم من الغزاة.

بنفس اللحظة ظهر في الأفق عدد كبير من الخيول يتقدم ناحيتنا.. وكأنه جيش يُهاجمنا حاملين الرايات الحمراء.. دققت النظر بهم وهم يقتربون ناحية الباب الخشبي ويُفسح لهم الجميع الطريق.. كان بمقدمتهم الملك برشاع ملك عمورة.. كان يصيح فيهم بحماس شديد:

– اللعنة على الغزاة.. الموت لمن يقترب!

– أغبياء.. تسعون لفنائكم بأيديكم.

قالها عوف مختار صارخًا فيهم.

بدأ رجال برشاع بإطلاق سهامهم تجاهنا.. وفي غمضة عين أُصيب عوف مختار بأحد تلك السهام المفاجأة مخترقًا صدره.. وقع بجوارنا يلفظ أنفاسه بين يدي هامسًا لي:

– اقتلوهم.. أطلقوا النيران!

صرخت برجالنا عاليًا:

– اقتلوهم.. لا تتركوا أحدًا على قيد الحياة!

بدأ الرجال بتنفيذ أمري، وأطلقوا الرصاص العشوائي مرة أخرى على أهالي سدوم، ولكن هذه المرة كان قوم هذه المدينة على استعداد تام لذلك..

كانوا يهجمون سريعًا على تلك الدبابات.. لم يخفهم قتلاهم المتساقطون.. أعدادهم الغفيرة كانت كفيلة بابتلاع تلك الدبابات والوصول إليها وقتل رجالنا.. رجال العملية نسر..

وساعدهم على ذلك الدعم الخارجي الذي ترأسه الملك برشاع مُجهزًا له بعناية طوال الليلة الماضية.. التحام غير مسبوق بين أهالي القرية وأفرادنا المسلحين.. رأيتهم يأكلون رقابهم غضبًا في ثورة عارمة.. وما زاد الأمر سوءًا هو اشتعال النيران بالطائرة الخاصة بنا، الظاهرة أمام أعيننا جميعًا تلتهمها النيران المُضرمة بها مُحرقة أحلامنا بالفرار..

صاح قلقاس:

– الطائرة تحترق.. الويل لنا.

– سيفتكون بنا.

في هذه اللحظات خرج نوح من تلك الغرفة بالدور الأرضي بعدما تابع كل شيء من شرفتها.. أتى إلينا راكضًا صارخًا:

– ماذا تنتظرون..؟؟ هلموا.. فلنهرب قبل أن يصلوا إلينا.

– إلى أين يا سيدي؟؟

سألته مرتبكًا للغاية:

– إلى خارج هذه القرية.

– لن يسمحوا لنا بالخروج من هنا.

– انتهى أمرنا.

نجحوا في اقتحام بوابة القلعة الأمامية.. لم يتبق منا سوى القادة العشرة الذين اختارهم عوف قبل العملية نسر.. تركناه ميتًا في شرفة القلعة وفررنا.. عشرة أفراد فقط من أصل مائة، ماتوا في لحظة واحدة، دهسًا بجحافل أولئك الثوار الملعونين.. ركضنا للداخل.. هبطنا درجات سلالم القلعة وهم يركضون وراءنا.. تعثر بعضنا أمامهم مُرتعدين..

رأيت بعيني أحدهم ينهال ضربًا بسكين حاد بيده، على دندشة وعمرو حليم ومجدي فلفل بكل غل وثورة لا حدود لها.. وآخر يخنق زغلول الشاطر.. وفهدة كذلك دُهست تحت أقدامهم.. لحظات تفصلنا عن الموت.. وصلنا للدور السابع السفلي.. لم يعد هناك مفر من الموت.. لم يتبق منا سوى خمسة أفراد.. أنا ونوح سقراط وعيسى ممتاز وعزام عزام وعمي إبراهيم قلقاس..

يبدو أننا جئنا إلى هنا لتقوم قيامتنا، نحن في زمن قبل زماننا محكوم عليه بالفناء..

صرختُ بعمي:

– سنمووووووووت يا عمي!

– لله الأمر من قبل ومن بعد.. لله الأمر من قبل ومن بعد!

قالها عيسى ممتاز مستعدًا للموت.

صرخ بنا نوح:

– أليس هناك طريقة للنجاة؟؟

كانت أصواتهم تقترب.. كنا على حافة الموت نستعد للسقوط.. تذكرت جهازه الصغير، المسئول عن التنقل عبر الزمن..

صحتُ بعمي:

- الجهاز.. الجهاز يا عمي.

- الجهاز لا يعمل بدون الطائرة!

- أين هو أرجوك؟؟

- ها هو

ناولني إبراهيم قلقاس جهازه الصغير المكتوب عليه ١٥٥٠ قبل الميلاد..

- هذا الجهاز مُصمم لمضاعفة السرعة.. لا بد من وجود طائرة يا آدم!

- فلنجرب..

صرخ بيّ قلقاس:

- لم أجربه بمفرده من قبل.

- الآن حان وقت التجربة.

وضغطت على زر التشغيل، بعد كتابة تاريخ خروجنا من زماننا بيدي المرتعشة.. الثامن والعشرون من يناير ٢٠٥٠ على شاشته العريضة.. الحرب الأهلية هناك جنة بالنسبة لذلك الجحيم المُستعر بزمن قوم لوط.. ذلك

التاريخ السحيق الذي فشلنا في تغييره بالقوة، وكأن القدر يمتلك أعتى الأسلحة التي لا تُغلب مهما حاولنا الوقوف أمامه..

كانوا أمامنا يقتربون.. مدوا أيديهم ليمسكوا بنا، ولكننا سقطنا بدوامات مفاجأة سوداء اللون.. وكأننا نسقط من طائرة عالية بسرعة رهيبة.. صرخنا عاليًا وامتزجت صرخاتنا..

لم ندرك هل نجونا من أولئك الحمقى حقّا، أم أننا هالكون لا محالة؟؟

التيه

وكأن عظامي تتكسر بمطارق الزمن القاسية.. تتمزق روحي بالممرات الزمنية العجيبة.. ألم رهيب ينتابني هذه المرة.. لم نشعر به بالمرة السابقة.. ربما لانتفاء وجود الطائرة..

الأمر أشبه بدوامات رهيبة السرعة..

أجسادنا تلتف داخلها دون توقف.. دقات قلوبنا تصرخ بين صدورنا وتلعن تلك اللحظة التي وافقنا فيها على تلك المهمة اللعينة.. العملية صقر وتلتها العملية نسر والنتيجة مات الجميع إلا خمسة.. ومن يدري هل سنغدو أحياء أم أن هناك المزيد من الموت بانتظارنا.؟

غبت عن الوعي وآخر ما فكرت به هو عشقي البعيد.. حبيبتي رضوى شاهين.. رأيتها مرتدية السواد باكية.. نظير شؤم.. تبا لهذه الدنيا التي تحرمنا من الأحباء قسوةً وعندًا.. لماذا لا تتركنا بجوارهم ولو لبرهة من الزمن؟؟

لماذا تُغمس حياتنا دومًا بالحزن والفراق؟؟

غاب عقلي وروحي متعلقة بها.. همست بحبها بآخر ما نطق به لساني..

- أحبك.

وساد الظلام من حولي.. استسلمت روحي لمصيرها المجهول.. لم أدر كم مر من الوقت على هذه الحال.. شيء ما يغتال السكون حولي، محاولًا إفاقتي لأعود مرة أخرى للحياة.. ضوضاء بعيدة تقترب.. فتحت عيني بالكاد.. ألم شديد بجسدي ورأسي..

لا أرى الأشياء بوضوح.. ضباب يحيط عيني.. نهضت واقفًا.. كان بجواري شجرة عملاقة لا أرى نهايتها.. شجرة خاوية من أوراقها.. عجوز فارعة.. نظرت حولي باحثًا عن زملاء الرحلة البائسة.. لا وجود لهم.. همست غاضبًا:

- سحقا لك يا عمي.. تبا لاختراعك اللعين!

كانت الأرض تهتز من حولي وكأنه زلزال مفاجئ.. زال الضباب رويدًا رويدًا.. نظرت للأفق.. يا لعجب ما رأيت!..

كنت بين جبلين شاهقي الارتفاع.. رأيت لافتة كبيرة عالية، تبعد عن الأرض أكثر من خمسة عشر مترًا، مكتوبًا عليها "سوق جمدة نصر".. وأناسًا عمالقة لا أرى منهم سوى أرجلهم وأقدامهم..

طول أحدهم لا يقل عن سبعة وثلاثين مترًا، وعرضه يتراوح بين الأربعة والخمسة أمتار..

جحظت عيناي لهول ما أرى..

أدركت حينها أنني في زمان سحيق.. قذفني جهاز قلقاس للسفر عبر الزمن لبداية التاريخ البشري.. تداعت على ذاكرتي تلك العبارات، التي قرأتها في كتاب خاص بالتاريخ القديم كان بصحبة عزام عزام ذات يوم:

"إن حضارة جمدة نصر هي آخر مرحلة سابقة للعصر التاريخي، ونهايته كانت بطوفان نوح".

يا للعنة!!

أصبحت شريدًا وحيدًا في زمن العمالقة، أترقب الموت في أية لحظة..

شُلّ عقلي تمامًا.. فأنا بالنسبة لهم كفأر هارب.. حيوان ضعيف يبحث عن مأوى آمن.. وربما يدهسونني دون أن تهتز لهم شعرة واحدة..

يا إلهي ماذا أفعل..؟؟

- الجهاز..

بحثت عنه حولي فلم أجده.. كان بيدي في اللحظات الأخيرة بعصر سدوم.. لم يعد له أثر على مدى البصر.. بحثت عن عمي إبراهيم قلقاس، وعنهم كثيرًا، دون جدوى.. ربما سقطوا في مكان قريب.. علىّ بالتحرك من هنا!

وقفت خلف تلك الشجرة القريبة من مدخل سوقهم، أتلصص من خلفها على هؤلاء العمالقة المرتادين لهذا السوق العجيب..

سوق مستطيل الشكل طويل، وكأنه شارع مستقيم شاسع العرض.. على جانبيه البائعون الضخام.. جلس البائعون على مسافات متساوية من بعضهم البعض والتف حولهم رواد السوق بانتظام مدهش..

ترجلت بحذر داخلًا ذلك السوق الشديد الانتظام..

رُصت البضائع خلف الباعة مربعة الشكل، وعلى الرغم من ضخامتهم وكثرة عددهم، فلم أشعر بالزحام مطلقًا..

تعالت أصواتهم بشكل متوالٍ، بحيث لا ينادى بائع على بضاعته إلا بعد انتهاء من قبله.. كلٌ في وقته ودوره..

العجيب أن ذلك يدور بشكل تلقائي دون منظم لهم!

- كافور.. كافور.. كافور.. ورق الكافور المغلي!

نادى الباعة بحماس شديد على بضائعهم المُعلقة خلفهم:

- صنوبر.. مشوي ومقلى.. تعال إلى هنا.. الصنوبر المشوي.. صنوووووووووووووبر.

تعجبت كثيرًا.. إنهم يأكلون أوراق الشجر.. أمعقول هذا.؟.. أناس بهذا الحجم ويأكلون أوراق الأشجار؟..

همست لهم بصوت مرتعش:

- لا تُكثروا من الكافور فهو مضر لرجولتكم..

لاحظت حينها أجساد حيوانات ضخمة معلقة بمنتصف السوق!

لم يكن الدور قد أتى على بائعها لكى ينادى على بضاعته، فقد تكرر قبله أكثر من عشرة بائعين للصنوبر والكافور.

هلل البائع في دوره:

– لحوم ديناصورات.. لحوم ديناصورات.. المشوي منها والمقلى .. لحوم ديناصورات.. كل ما لذّ وطاب تعال إلى هنا.. تعال..

همست خائفًا:

– إنهم يأكلون الديناصورات!!..

استمعت إلى صوت دقات على طبلة بالقرب مني.. تلفت حولي مقتربًا من الصوت، وصلت إلى ساحة دائرية كبيرة وسط السوق، تكتظ بالسيدات العملاقات، المرتديات جلود الحيوانات حول مناطق عوراتهن فقط..

وكان جميع الناس رجالًا ونساءً، يرتدون جلود الحيوانات، لكنها كانت تختلف من شخص لآخر في اللون وفى حجم ما تغطيه من أجسادهم..

كانت السيدات في هذه الساحة يرقصن، على هذا الإيقاع المُنغم على الطبلة العملاقة، التي يدق عليها رجل أسمر اللون عملاق.. هذه الدقات تصنع نغمة أعرفها جيدًا.. سمعتها من قبل.. بدأت أدندن معها مستكشفًا لحنها:

– الليل ..الليل ..الليل.. الليل يا ميمون..

ضحكت حينها.. إنه لحن القرداتي في زماننا..

تعجبت لهذا التوارث العجيب عبر الأجيال السحيقة، ولكن شتان بين القرد والمرأة.. شتان بين الراقص هنا وهناك..

كان الزبائن الرجال يدخلون هذه الساحة يتفرجون على النساء، ويتلذذون بمفاتنهن المهتزة أمام أعينهم ويفرزون منحنياتهن بدقة.. وإذا أعجب أحدهم بامرأة يذهب ليدفع النقود لذلك الرجل الأسمر الممسك بالطبلة، ويأخذها في هدوء..

صرة ضخمة من الدنانير كان يعد ما بداخلها في كل مرة.. أدركت أنه سوق للجواري.. الغريب أنني لم أتعرض للدهس طوال تلك الفترة، ربما لأنني كنت متوقعًا لتحركاتهم من شدة النظام داخل ذلك السوق..

اقتربت من ساحة أخرى دائرية، بعد مجموعة من البائعين الجالسين بشكل مستطيل..

ساد الصمت في هذه الساحة.. اقتربت أكثر مستكشفًا..

عدد كبير من العمالقة الرجال يسجدون في اتجاه واحد.. برقت عيناي هامسًا:

- إنهم يصلون!!

اخترقت تلك الصفوف الحاشدة من الساجدين في هدوء.. سجود بلا قيام.. صمت مريع يسود هذه الساحة.. ووجدت ما توقعت أمام عيني..

عدد من الأصنام الضخمة في مقدمة ذلك المكان..

مجموعة كبيرة من التماثيل مختلفة الأحجام، متراصة بجوار بعضها البعض، أكبرها طولًا في المنتصف، وتتصاغر في الطول حتى أصغرها في الجانبين، وكأنه هرم.

اقتربت من هذه الأصنام وسط نداء أحد الباعة بحماس شديد.. قاطعًا صمت سجودهم..

فقد حان عليه الدور بالنداء:

– اشتر الإله وضعه في بيتك.. هيا ..اشتر الإله..

ترجلت ناحية أصغرها ولمسته.. وقفت بجواره.. قارنت طولي بالتمثال.. إنه في نفس طولي تقريبًا..

تحرك الكثير من الزبائن يعاينون التماثيل الصغيرة ويشترونها مقابل أكياس من النقود..

اقتربت طفلة صغيرة طولها ثمانية أمتار مني.. نظرت إليّ وتحسستني متعجبة.. وقفت جامدًا لا أتحرك كاتمًا أنفاسي وكأنني تمثال مثلهم.. تعجبت كثيرًا من ملمسي وصرخت كالتي وجدت بغيتها:

– أمااااه.. أمااااه..

أريد هذا يا أماه.. أريد هذا..

أشارت ناحيتي مُعتقدة أنني تمثال كباقي الأصنام..

اقتربت أم الطفلة العملاقة منحنية تنظر إليّ ثم اعتدلت وحدثت البائع..

- بكم هذا الإله يا رجل؟؟

أجابها البائع بحدة:

- كلها بسعر واحد..

- لكن هذا صغير..

أتبيع الصغير كالكبير؟.

- كلها آلهة.. وإذا لم يعجبك فلا تشتري..

هيا.. هيا هيا.. اشتر الإله وضعه في بيتك ..

ود وسواع ونسر ويعوق.. ويغوث..

هيا اضمن ثناء الآلهة عليك هيا ..هيا..

نادى البائع بحماس شديد بينما تمسكت الطفلة بي باكية:

-أريد هذا يا أماه أريده أريده ..

أخرجت الأم أكياس النقود، وناولتها للبائع رغمًا عنها

- حسنًا ..حسنًا..

خد يا رجل.. لكنني لن أشتري منك مجددًا

- باركتك الآلهة..

أمسكت الطفلة بي كالدمية وسط ذهولي..

لم أدر ماذا أفعل .. هل أنفلت منها وأفر بعيدًا..؟؟ هل أصمت؟؟

ماذا سيفعلون بي إذا اكتشفوا أمري؟.. سيسحقونني لا محالة!

فكرت حينها في البحث عن نبي الله نوح.. ربما كان على مقربة مني.

تمنيت ذلك.. مؤكد سيصدقني ويحميني.. ولكن أين هو؟؟ وهل يمكنني التحدث إليه حقّا وأنا بالنسبة له قزم متناهي الصغر.. هل يصل صوتي إلى أذنيه؟؟ كدتُ أصرخ بصوت مكتوم مرتعشًا:

– يا نوح.. يا نبي الله.. أنقذ عبدًا سيأتي بعدك بآلاف السنين.

يا نوح.. يا تقي الله.. لا تتعجب من شكلي فأنا من أغرق الله.

الدنيا بطوفانك لأجله.. أنت جدي الأكبر.. يا نوح..

مد يديك لتحميني كما سيحميك الله من طوفانه العظيم.

ابسطها لي كسفينتك فأنا بحاجة إليك.. أنت مثواي وملجأي الأخير.

يااااااااااااا رب.. كن بجانبي في محنتي.. أنقذ إنسانًا ضعيفًا.

بهذه اللحظات ولأول مرة بحياتي شعرت بدفء الله.. فالله دفء لا يشعر به سوى المحتاجين إليه.. الله كريم لا يرد سائلًا.. وكأنه يقول لي:

– يا ابن آدم لا تخف أنا معك.

أعلم أنني عبد عاص.. حتى حينما انتظمت في عبادته وطاعته، كان ذلك بدافع حبي لرضوى، ولم يكن رغبة في إرضائه.. إيقاعات الحياة القاسية

السريعة، لا تعطي فرصة للقلوب بأن تناجي ربها.. وربما تلك الأزمة التي أمر بها الآن، عادت بقلبي طفلًا رضيعًا برحاب الله.. صرخ قلبي عاليًا وتساقطت دموعي مُتعلقًا برحمته:

– يا اااااااااااااا رب.. أنا الظمآن شوقًا لغفرانك.

كف عقلي عن التدبير فدبر ليّ أمري..يا رب.

تحركت الأم والطفلة فى السوق بسرعة وأنا في يدها كالدمية الملعونة..

أصبحت أرى الناس بالمقلوب وأصابني الدوار الشديد .. ورطة كبيرة لا خروج منها.. أين أنت يا عزام؟؟.. أين أنت يا عمي ؟؟.. فقد صرت دمية بيد العمالقة.. ترى هل من مخرج آمن؟؟ أم أنها النهاية؟ وبلحظة واحدة رأيت أمامي صورًا متعددة وكأنني بمكان أخر شاهدًا على أحداث متداخلة وأنا بمكاني بين قبضة تلك الطفلة..

***

رأيت نوح سقراط يفتح عينيه مُعانيًا من آلام مبرحة كآلامي وحيدًا بمكانٍ آخر.. لم يكن أي منا بجواره أو على مقربة منه.. أراه كشريط سينمائي لا أدري كيف؟ سمع نوح هتافات تصل لأذنيه.. تجتاح ترقبه وتُربك ما تبقى من وقاره ورزانته..

– ألمانيا فوق الجميع.. ألمانيا فوق الجميع.

كانت هتافات باللغة الألمانية، ولكنه سريعًا أدرك معناها. فبحكم موقعه كرئيس للجمهورية، كان يعرف بعض اللغات الأخرى، وكانت الألمانية واحدة منها..

- ألمانيا فوق الجميع.. ألمانيا فوق الجميع.

نهض من مكانه بالكاد.. كان بغرفة قديمة لقطار خالٍ من المقاعد وكأنه مهجور منذ فترة.. أشولة مهترئة من الرمال ملقاة هنا وهناك.. تحرك بحذر شديد متلصصًا على ذلك الزمن، الذي ألقاه فيه جهاز قلقاس اللعين.. ولكن على أقل تقدير فقد أُنقذ من زمن سدوم البغيض..

استنشق الهواء البارد حوله، ونظر من شباك القطار مختلسًا النظر لمن بالخارج..

أعداد غفيرة من الجنود الألمان بزيهم العسكري.. أعداد لا حصر لها على مدى البصر تملأ ذلك المكان.. كان على أطراف معسكر حربي.. هكذا يبدو من بنائه الذي لا يتجاوز دورين على الأكثر على جانبين متباعدين.. عرضه يقترب من كيلو مترين اثنين وطوله أكثر من ذلك.. كل تلك المساحة ممتلئة بالجنود المهللين الهاتفين.. أعلام حمراء يتوسطها صليب معقوف.. تبا لذلك..

أدرك نوح سقراط في تلك اللحظة أنه بعصر هتلر.. أنه بألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية.. في الأربعينات من القرن الماضي.. يا لحظه العاثر.. كانت العملية صقر من بدايتها تخطط لذلك الزمن بمصر، ولكنه الآن وحيد

بدون أسلحته وقواته ومن دون معاونيه.. لن يتمكن من تنفيذ أي شيء من تلك الخطة، حتى وإن تمكن من العودة لمصر، فسيعيش مثله مثل أي مواطن، معانيًا من نفس الظروف التي طالما انتقدها..

لافتة كبيرة مكتوب عليها بالألمانية معسكر أوشفيتز.. كان نوح يعلم ذلك المعسكر جيدًا.. لطالما قرأ عنه كثيرًا.. إنه من أكبر معسكرات الإبادة النازية ضمن معسكرات الهولوكوست.. بمدينة أوشونز ببولندا.. كانت الهتافات تزداد وترج ذلك المعسكر اللعين..

هدأ من روعه هامسًا:

– لا داعي للخوف من ذلك المكان، فاليهود فقط هم من يرتعدون بوجودهم في ذلك المعسكر.

فلتهدأ يا نوح..

تردد بالنزول من ذلك القطار.. ولكن هيهات.. ليس أمامه سوى النزول والبحث عن كبير المعسكر، والتحدث معه ليساعده على العودة لمصر.. ولكن بماذا يخبره..؟؟ لن يصدقه أحد..

عليه باختلاق قصة مغايرة يستطيعون تصديقها.. اهتدى لفكرة سريعة قد تصلح لمثل ذلك الموقف.. سيخبرهم بأنه مصري، مختطف من بعض اليهود لثأر قديم، وكانوا ينوون قتله ولكنهم هربوا بعد قيام الحرب العالمية الثانية وتركوه، وأنه يريد المساعدة للعودة لبلده بأمان..

– قصة مشوهة ولكن لا مفر منها!

همس نوح سقراط بذلك مُتنهدًا.. هبط من القطار مقتربًا من زحامهم الشديد..

كانت خطواته حذرة مترددة ففي هذا المكان يرفرف الموت بكل جوانبه.. فالهولوكوست تعني الخراب والهلاك.. ولكن نوح سقراط كان من أشد المعجبين بفكرة هتلر في ذلك الوقت.. التخلص من اليهود في العالم أجمع.. فكرة حالمة ولكنها نُفذت بدموية شديدة لا يقبلها من هو في تديُّن سقراط..

كان من الممكن سجنهم مدى الحياة بهذه المعسكرات، وفصل الرجال عن النساء وبالتالي سيموتون وينقطع نسلهم من الدنيا، بدون الحاجة إلى القتل المريع.. خطة طويلة الأجل ولكنها سامية فعالة.. كم كان يتمنى نوح أن يكون في مكان هتلر فينفذ تلك الخطة..

تلك كانت رؤيته بخصوص الإخوان ومواليهم.. التخلص منهم بدون نقطة دم واحدة.. ولكن الأمر يختلف ها هنا فمن الصعب عليه بزماننا تحديد ذوي الميول الإخوانية والانتماءات المستترة، بخلاف هتلر وسهولة تحديد ذوي الديانة اليهودية..

كان نوح شغوفًا بالقراءة عن هتلر منذ بداية توليه السلطة في ألمانيا.. منذ اعتقاده بأن اليهود هم سبب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.. وخطواته التصاعدية ضدهم.. ففي الأول من أبريل عام ١٩٣٣، أعلن النازيون وحزبهم الحاكم" حزب العمال القومي الاشتراكي"، مقاطعة الشركات التي يديرها اليهود.. وأصدر بعدها قانون يُجرد يهود ألمانيا من حق المواطنة، وآخر يُحذر الزواج من يهود ألمانيا..

وتبعتها قوانين نورميرج عام ١٩٣٥ بمنع دخولهم للحدائق والمنتزهات العامة، وتسريحهم من الوظائف الحكومية بالدولة ومنع الأطباء من فحص أي مريض يهودي.. وفي التاسع والعاشر من نوفمبر عام ١٩٣٨.. دارت أعمال عنف واسعة ضد اليهود، وأعمال نهب وحرق المعابد اليهودية، وتحطيم واجهات الزجاج للمحال، وإلقاء القبض على أكثر من ثلاثين ألف يهودي، أرسلوا لمعسكرات الاعتقال.. وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، أمر النازيون المواطنين بارتداء نجمة داوود الصفراء، بحيث يمكن تمييزهم عن اليهود..

وخصصت الحكومة حيًّا واحد بكل مدينة جمعت به من تبقى من اليهود يسمى حي الجيتو.. وأغلقت أبواب الحي وأسواره عليهم، ووضعوهم في حصار شديد.. وفي مارس عام ١٩٤١ أمرت الحكومة النازية بتشكيل مجلس يهودي داخل كل حي جيتو، يختص بتنفيذ أوامر الحكم النازي وتنظيم شئونهم بالحي، وبعدها أمروا بإخلاء الأحياء، وشحن مواطنيها بالقطارات إلى معسكرات الاعتقال، ومنها لمعسكرات الإبادة.. خطة تصاعدية دموية مفعمة بملايين الجثث على تلال اليهودية!

خطة ذكية لو كانت تنتهي عند حد المعتقلات، وليس بالموت والقتل.. هكذا رآها نوح..

فنوح سقراط وهتلر وجهان لعملة واحدة، ولكنهما متضادان بطريقة التنفيذ.. كلاهما يريدان التخلص من أعدائهما وأعداء الوطن، ولكن الأول

بحكمة، والآخر بالقتل والاغتيال.. شتان بينهما.. شتان بين المانع والقاتل.. هكذا اعتقد نوح سقراط..

اخترق زحامهم.. التحم بحماسهم الشديد تحت أعلام النازية.

- ألمانيا فوق الجميع.

عربات ممتلئة مؤخرتها بالجثث العارية تتحرك ذهابًا وإيابًا.. يبدو أنها متجهه إلى المحارق.. ذلك المعسكر كان به أربع محارق كبيرة.. مستودعات الغاز القاتل أول أكسيد الكربون.. بكل مستودع تستطيع قتل ألفين وخمسمائة يهودي..

كانوا يجلبونهم هنا كمرحلة أخيرة بذلك القطار، ويجبرونهم على خلع ملابسهم للاستحمام الجماعي، ولكنها النهاية.. الموت اختناقا بالغاز القاتل، وبعدها يتم حرق جثثهم بالمحارق الجماعية.. ليستعد المعسكر لاستقبال غيرهم.. معسكر أوشفيتز.. سبع مائة ألف قتيل باليوم.. رائحة دمائهم المحترقة تمتزج بالهواء حولهم.. فقد اعتادوا عليها وربما أدمنوها..

وصل نوح إلى منتصف المعسكر دون أن يلاحظه أحد.. على الرغم أن ملابسه مغايرة لهم ومن السهل تمييزه عنهم، ولكنهم مشغولون بالهتاف والتهليل..

نظر نوح إلى مقدمة تلك الصفوف.. كان هناك رجل يقف خلف منصة عالية بعض الشيء.. دقق النظر فيه غير مُصدق.. إنه هتلر.. رجل الدماء الأعظم بتاريخ البشر.. قاتل العشرة ملايين إنسان بحرب واحدة.

وقف يتابعه عن بعد.. يتابع لفتاته وعباراته.. أهو إنسان مثل باقي البشر؟؟ يشعر ويتنفس ويحب ويكره.. كيف له أن يتحمل وزر كل هذه الدماء؟؟ ألم ينظر في عين أي منهم قبل موته بلحظات؟؟ ألم يُحرك قلبه دموع طفل يهودي يقتادونه إلى غرف الغاز؟؟

كان هتلر يخطب فيهم بحماس منقطع النظير:

– نعم ألمانيا كانت دولة ديمقراطية قبل حكمنا.. ولكن ماذا تعني الديمقراطية لهؤلاء الضباع العالميين.. ليسوا مهتمين البتة.. مهتمون لأمر واحد فقط.. السيطرة علينا.. هل أنتم مستعدون للتخبط؟؟

هل أنتم أغبياء لتبقوا صامتين؟؟

نعم أو لا..

– لا.. لا .

كانوا يجيبونه بحماس شديد!

– وعندما تكون الديمقراطية والدولة غبية جدًّا

لئلا تقف للدفاع عن نفسها.. حينها يكون هذا أمرًا جيدًا؟؟

– لا.. لا..

ألمانيا فوق الجميع!

– ولكن عندما تعلن الدولة الحاكمة، لن نأذن لكم بجعل شعبنا يتخبط بعد اليوم، لا من الداخل ولا من الخارج.. ألمانيا فوق الجميع..

- ألمانيا فوق الجميع!

أشار لهم بالهدوء ليستكمل خطابه التاريخي:

- في الحقيقة.. المال هو المتحكم في هذه البلدان يتحدثون عن حرية الإعلام وحرية الصحافة وفي واقع الأمر كل هذه الصحف يملكها مالك واحد وهذا المالك في جميع الأحوال هو الراعي، هذه الصحافة تقوم بتحديد الرأي العام العالم يجب أن يعرف وبالأخص في هذه الدول أنّ الحرية والثراء يجب أن توفر حياة مريحة لشعبها ولكن للأسف العكس هو ما يحدث في هذه الدول التي تدعي الديمقراطية الشعب ليس هدفهم الرئيسي ما يهمهم حقا هو وجود تلك الجماعة الملقبة بصانعي الديمقراطية.. بضع المئات من الرأسماليين الكبار من يملكون المصانع والأسهم.. القادة الحقيقيين للشعب.. اليهود هم كذلك.. جماعة عالمية بلا جذور.. تقوم بقلب العالم ضد بعضه البعض لا تريدهم أن يعيشوا في سلام.. يمكنهم أن يضطهدونا.. يمكنهم أن يقتلونا إن أرادوا ذلك.. لكننا لن نذعن لهم.. هؤلاء اليهود كانوا يضحكون.. كانوا يظنون أننا دعابة فكاهية، ولكنهم توقفوا عن الضحك الآن.. اليوم أدركوا ثقل الوضع.

اليهود قوة شيطانية استولت على أوطاننا..

الذين استطاعوا الحصول على مناصب رئيسية في حياتنا الفكرية والروحية والسياسية والاقتصادية.. ومن ثم يتحكمون بنا.. ولذلك من أجل هذا الشعب.. سنناضل ونحارب.. لن نتهاون.. لن نتعب.. لن نفقد

شجاعتنا.. لن نيأس.. لنتحد ضد الطغيان اليهودي.. لنسحقهم.. ولتبقَى ألمانيا في المقدمة.. رمزًا ضد الماسونية.

– ألمانيا فوق الجميع.. ألمانيا فوق الجميع.. عاش هتلر العظيم!

كانت هتافاتهم تخلع القلوب حماسًا.. وصل حينها نوح سقراط لمقدمة الصفوف.. نظر إليه هتلر بعينين ثاقبتين.. استطاع تمييزه بين صفوفهم الحاشدةُ متحدثًا بميكروفونه..

– من هذا؟؟

أشار هتلر ناحية نوح سقراط فنظر إليه الجميع بريبة!

– أنا مصري و..

قاطعه هتلر بعصبية شديدة:

– كيف يفلت منكم هذا اليهودي؟.. أمسكووووووه!

كنت أتابع ما يحدث لنوح بذهول ومازلت بقبضة تلك الطفلة المتلاعبة بي ..وسؤال واحد يتردد برأسي ..

–هل اخترق عقلي الزمن كجهاز عمي؟

وتوالت اللقطات المتغيرة من زمن لأخر متابعًا رفاق تلك الرحلة المشؤومة..

***

وحُجبت الشمس خلف سحب كثيفة بوادٍ غير ذي زرع.. نسمات الهواء تداعب وجه عزام عزام بعد غيبوبة التنقل عبر الزمن.. فتح عينيه مستقبلًا مصيره المجهول.. جلس في مكانه ناظرًا حوله مُستكشفًا مكانه.. عدد من الجنود يمتطون جيادهم وعلى أجسادهم أردية من الجلد الأحمر وخوذ نحاسية تغطي وجوههم.. كانوا يعدون تجاهه ويشيرون ناحيته صارخين:

- أمسكوا ذلك اللص اللعين!

نهض عزام خائفًا وجرى بعيدًا محاولًا الهرب دون أن يفهم أي شيء مما يحدث.

- أمسكوا اللص اللعين!

كانت أرضًا شاسعة صخرية، وفي الأفق تظهر مدينة عتيقة لها أسوار تحيط بها.. حاول عزام الفرار تجاهها، ولكنهم تمكنوا من الإمساك به..

- من أنتم؟؟ وماذا تريدون مني؟؟

- أمامنا أيها اللص اللعين..

- أنا لست لصًّا.

- صه.. لا تتكلم.. فقد صدر الأمر بصلبك.

أتريد الهروب منا بكل هذه السهولة؟

- صلب؟؟ عما تتحدثون؟؟ أنا من زمن آخر غير زمانكم.. اسمعوني سأشرح لكم.

– هيا.. قيدوه واحملوه إلى ساحة تنفيذ الأحكام!

– اتركوني.. اتركووووووووني!

قاموا بتقييده بسلاسل من حديد، ووضعه فوق أحد جيادهم، وانطلقوا به نحو المدينة.. حاول عزام مرارًا وتكرارًا الصراخ دون جدوى:

– أرجوكم.. لست من تعتقدون.. أنا وافد غريب من زمن آخر

اتركووووووووني!

وخلال دقائق معدودة دخلوا من أبواب المدينة.. كان الناس بانتظارهم مُحتشدين في طرقاتها..

وعزام يراهم مرعوبًا من مصيره المجهول.. لا يدرى ما تلك اللعنة المصاحبة له، منذ الدخول في هذه العملية العسكرية المعتمدة على تقنية إبراهيم قلقاس؟.. في كل خطوة منذ بدايتها والخطر يحيط به.. مات الجميع وبقى هو وحيدًا بمفرده في زمن لا يعرفه، مُتهمًا بالسرقة ومحكومًا عليه بالموت..

تبا لهذه الدنيا.. طوال عمره يعيش ساكنًا هادئًا مُبتعدًا عن المشاكل.. يقرأ في هدوء، ويجري تجاربه العلمية بعيدًا عن الكون بأكمله.. حتى ما توصل إليه من حقائق زورت عبر التاريخ، لم يخبر بها أحد.. احتفظ بها لنفسه فقط، فلم يستطع عزام المواجهة مع أحد طوال عمره..

أشياء كثيرة تغيرت بعد حريق مكتبة الإسكندرية القديم.. معلومات تم طمسها لصالح آخرين وحل محلها تاريخ مزيف..

من يُبحر في القراءات القديمة يستطيع إدراك الحقيقة بالكاد، وعزام كان من هؤلاء.. المبحرين بالتاريخ والعلم.. ولكنه عالم أبكم لم ولن يتكلم لأنه لا يقوى على حربهم.. حرب مع من قاموا بالتزييف وتبديل الحقائق.. والآن.. أتكون نهايته الموت في زمان لا يعرفه؟؟

صرخ بأولئك الحراس عاليًا:

- أين نحن؟؟

وصل حينها الجميع إلى تبة عالية، ويحتشد الناس أسفلها رجالًا ونساءً وأطفالًا.. يرتدون ملابس عربية قديمة.. صرح قادة الحرس بهم:

- قيدوه على يسار عيسى بن مريم!

برقت عينيه حينها.. ساوره الشك بأنه في الثالث من أبريل عام ٣٣ ميلادية.. يوم صلب المسيح عيسى بن مريم.. إنه بأورشليم القدس.. في فلسطين.. أنزلوه من فوق جواده مُقيدًا، وجرجروه ناحية صليب مُجهز مُلقى على الأرض.. لحظات لن ينساها عزام حتى بعد موته..

وكأنّ الدنيا توقفت من حوله.. سكون تام والجميع يتحرك ببطء شديد.. كانوا يمسكون برجل بالقرب منه جميل الملامح.. تذكر حينها تلك الرسالة الأثرية المنسوبة للملك بيلاطس البنطي.. الحاكم الروماني للمنطقة.. قرأ عنها في أحد الكتب القديمة أنها أُرسلت إليه، وذاك نصها:

"يوجد في وقتنا هذا إنسان لا يزال على قيد الحياة، يصنع عجائب ويدعوه الناس نبيًا قديرًا اسمه يسوع المسيح، ويدعوه تلاميذه ابن الله. إنه

يقيم الموتى، ويشفي المرضى بكل الأنواع. هذا الإنسان نبيل، ذو قوام معتدل وجميل، وجهه مملوء لطفًا مع حزم، من ينظر إليه يحبه ويهابه أيضًا، شعره مموج بلون الخمر تقريبًا منسدل على الكتفين إلى خصلتين مع غرة كعادة المنذورين، جبهته مسطحة تحمل صفاءً وهدوءًا بغير تجعيد، يشع حيوية ونشاطًا، أنفه معتدل وفمه بلا عيب، لحيته كاملة وغزيرة تحمل ذات لون الشعر ومتشعبة، عيناه زرقاوان وبراقتان جدًّا. ما نُظر قط ضاحكًا، لكنْ كثيرون رأوه باكيًا، مُرهب في إنذاره وتوبيخه، رقيق وجذاب في إرشاده وتعليمه، يداه وذراعاه غاية في اللطف والجمال تتوق إلى رؤيتهم، فارع الطول ونحيف، جاد في حديثه، ومتزن، هادئ وبسيط في لغته وسلوكه. جميل بين البشر.

إنه هو الرجل الأجمل، ويشبه كثيرًا أمه التي هي أحسن ما وجد بين نساء تلك النواحي. ثم إنه من جهة العلوم أذهل مدينة أورشليم بأسرها، لأنه يفهم كافة العلوم من دون أن يدرس شيئًا منها البتة. ويمشى حافيًا عريان الرأس نظير المجانين، فكثيرون إذ يرونه يهزأون به، لكن بحضرته والتكلم معه يرجف ويذهل. وقيل إنه لم يُسمع قط عن مثل هذا الإنسان في التخوم".

ويشك عزام كثيرًا في صحة هذه الرسالة، فقد كان بيلاطس البنطي هو ملك أورشليم القدس في هذه الفترة، وهو الذي صدق على قرار صلبه وموته بهذه الطريقة القاسية، فكيف يستقيم ذلك مع هذا الإطراء الموجود بالرسالة؟

هناك من يقولون إن ذلك الملك فعل ذلك، ليهدأ ثورة اليهود الراغبين في الفتك بالمسيح، وكان غير مقتنع بهذا القرار.. ولكن على أية حال مات الرجل بتلك الطريقة البشعة..

وها هو عزام تسنح له فرصة تاريخية لمشاهدة ذلك الحدث أمام عينيه، وليس ذلك فقط.. بل والموت بجواره..

نظر عزام في عيني عيسى بن مريم المتلئتان بالدموع، وسط هتافات اليهود العالية:

- اقتلوه.

- اصلبوه.

- اقتلوا عيسى بن مريم.

- اقتلوه.

صرخ عزام بهم جميعًا:

- لا تقتلوه..

سيلاحقكم العار واللعنة أبد الدهر!

سيطاردكم التيه من جديد.

ستحاربون الدنيا بأكملها حتى تحصلوا على مدينتكم هذه التي تقفون اليوم فيها..

ستدمرون أورشليم بأيديكم.. لا تقتلوه..

اتركووووووووووووووه!

اقترب منه كبير الحرس صافعًا إياه بقوة:

- اخرس أيها اللص اللعين.

اصلبوا هذا الوغد هيا..

- اتركوه واتركووووووني!

وددت حينها لو أصرخ معه لأخبرهم بجريمتهم ولكن عقلي كان مدركًا لغرابة ما يجري وخطورة اكتشاف أولئك العمالقة ليّ فقد يسحقونني بأرجلهم كصرصور أجرب ..كتمت أنفاسي وتابعت المزيد..

***

ثلاثة بمأزق كبير.. أنا بزمن الطوفان دمية متناهية الصغر وسط العمالقة.. ونوح سقراط مقبوض عليه وسط معسكر نازي بحضرة هتلر نفسه، والجميع يصمه باليهودية.. وعزام عزام بأورشليم القدس يجردونه من ملابسه ليصلبوه بجوار عيسى بن مريم.. تبا لتلك التقنية اللعينة التي اخترعها إبراهيم قلقاس.. تقذفنا في أكثر لحظات التاريخ عذابًا..

فتح رابعنا الشيخ عيسى ممتاز عينيه، محاولًا استكشاف مكانه وزمانه هو الآخر.. كان مُقيدًا على كرسي من الحديد الصدئ.. رائحة الدخان حوله تكاد تخنقه.. أخذ يسعل كثيرًا محاولًا التنفس وسط هذا الكم الهائل من الدخان..

إنه محكم الوثاق داخل قفص كبير من الحديد.. أسياخ عريضة من الحديد متقاربة تحيط به.. لم يكن بمفرده داخل ذلك القفص.. كان بجواره شخص ما بالجهة الأخرى.. أشخاص لا حصر لها بالخارج تهلل:

- اعدموه..

- القتل للجاسوس

- الموت للخارج عن السرب.

ما رآه عيسى ممتاز يفوق الخيال.. لم يكن هؤلاء الأشخاص خارج ذلك القفص أناسًا معتادين.. كانوا كالفراشات أسرابًا.. وكان لكل منهم جناح يرفعه عن الأرض قليلًا.. كائنات عجيبة.. أطوالهم تقترب من المترين وأجنحتهم شفافة اللون ولكنه يراها جيدًا، وسط ذلك الدخان الكثيف المحيط بهم..

أرض شاسعة لا نهاية لها.. وجبل عالٍ خلف ذلك القفص الحاوي لعيسى وشريكه المجهول.. وثعابين ضخمة تسعى بينهم.. منظر مخيف يخلع قلبه.. رجال كالتنانين يخرجون كلامًا بدلًا من النيران من أفواههم، وثعابين تصاحبهم كإخوانهم لا يضرونهم في شيء.. جلودهم سميكة ليست كجلودنا.. تشبهها كثيرًا ولكن بتدقيق النظر فيها تجدها غليظة منزوعة الشعر ملساء.. وجوههم حُمر وشعورهم طويلة منسابة على ظهورهم ولهم لحى مختلفة الطول وجميعها مهذبة محددة الأطراف.. عرايا إلا من رداء صغير يغطي عوراتهم.. رجالًا ونساءً يملأون تلك الساحة.. ونساؤهم مثلهم.. الفارق الوحيد أنهن بدون لحى، وعاريات الصدر مثلهم.. ضحكاتهم قرقعة..

بين أسرابهم المتعددة نيران منسابة مشتعلة مُنبثقة من تحت الأرض، وكأنهم فوق فوهة بركان يوشك على الانفجار.. كانت درجة الحرارة عالية للغاية.. كاد عيسى أن يختنق حرًّا.. بأيدي بعضهم سيوف طويلة بيضاء اللون.. البعض يهتف ويهلل والبعض الأخر يشرب من قنينة ممتلئة بسائل أحمر اللون في أيدي الجميع.. يبدو أنه خمر.. كان عيسى ممتاز مذهولًا لما يرى.. بعضهم ينكح بعضًا.. رجالًا ينكحون نساءً على مدى البصر، وسط هتافات الآخرين. وحيات تسعى فوق أجسادهم تزينها دون أن تصيبهم بمكروه..

نظر عيسى لذلك الشخص الجالس معه في القفص.. كان مثلهم بنفس هيئتهم ولكنه أكثر جمالًا وهيبة.. هادئًا مُبتسمًا.. صرخ به مُناديًا:

- يا صاح.

- أتناديني؟؟

- نعم.. أين نحن؟؟ ومن هؤلاء؟؟

- نحن في ساحة المحاكمة.. وهؤلاء قومي من الجن.

- ماذا؟.

برقت عيني عيسى ممتاز..

- الجن؟؟

- نعم.

- ومن أنت؟؟

- أنا عزازيل..

- عزازيل؟؟

كان عيسى يعرفه جيدًا.. لم يصدق أنه يجلس بجوار من قرأ عنه كثيرًا في الكتب الموروثة.. إنه إبليس قبل أن يلعنه الله.. إنه في زمان قبل خلق آدم أبي البشر.. قبل ملايين السنين.. لطالما قرأ أن الأرض سُكنت قبل آدم وذريته، بقبائل من الجن، وقيل بأجناس من الحِنّ والبِنّ والسِنّ، وهي كائنات تشبه الإنسان سفكوا دماء بعضهم البعض..

كما جاء في القرآن الكريم بسورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

قال كثير من علماء التفسير: " خُلقت الجن قبل آدم عليه السلام وكان في الأرض قبلهم الحِن والبِن فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم وأجلوهم عنها وأبادوهم منها وسكنوها بعدهم.."، (البداية والنهاية لابن كثير ص: ٥٠).

أما باقي العلماء فقد كانوا بحاجة إلى دليل مادي لتأكيد هذا الكلام، و قد وجدوه في حفريات لمخلوقات، على شكل هياكل عظمية تشبه البشر إلى حد كبير، اكتشفها العلماء عام ١٩٩٤ في إثيوبيا تعود إلى أربعة ملايين وأربعمائة ألف عام..

هل هي هياكل عظمية للحِن و البِن، التي جاءت في كتاب ابن كثير؟!

هذا يعني بالتأكيد أن هناك مخلوقات، استوطنت الأرض قبل الإنسان بأربعة ملايين وأربعمائة ألف سنة.. وكان عيسى قارئًا جيدًا لتلك الكتب بالذات، الباحثة عن أصول الإنسان وبداياته على وجه الأرض.. كان مُهتمًا شغوفًا ببدايته ونهايته..

ووفقًا للأحياء القديمة، ووفقًا لتفسير ابن كثير لآيات القرآن الكريم، وما تواتر على ألسنة الأمم في متون كتب الذكر الأول، أن هناك مخلوقات عاشت على الأرض بهيئة أقرب للبشر، قبل وجود الإنس والجن، وهذه أشهر ستة مخلوقات استوطنت الأرض تداولتها الكتب العلمية والتفاسير.

١- البِنّ:

بعد أن استقرت الأرض وبردت لحمتها، وبدأت الحياة تدب على وجه الأرض... وكان ذلك في الزمن المسمى بالعصر البروتوزوي (وهو الزمن الذي تم فيه أول خلق لخلية حيّة على وجه الأرض، بحسب تقدير العلماء... أي منذ ملياري سنة ونصف المليار)، تم خلق البِنّ (بكسر الباء).

وهي أول كيان عاقل غير مكلف.. مخلوقات أقرب للمسوخ بدائية التكوين من أصل عضوي لا تتكاثر جنسيًا.. بل ميتوزيّا من أصل الأرض وذلك إما بقطع أجزاء منها أو بموتها من خلال تساقط خلاياها على الأرض وتكوين مخلوقات جديدة بنفس الهيئة..

أما عن كيفية خلقها، فهي تبدأ على شكل الدودة العظيمة التي تسرع في النمو، حتى تصبح على شكل كائن نصف قائم، ثم تتحول لتشبه القرد المنتصب إلى حد ما، لتهرم وتشيخ و تموت بعد ذلك، وتختلط أجزاؤها بالأرض لتتحول إلى طين لازب، تخرج منه أعداد أخرى، وهكذا تتكاثر الفصيلة.

اختفت مخلوقات البِن بعد أن تكونت الطحالب، ثم المفصليات والأسماك، وازدادت بقعَة الماء على الأرض، وبدأت في التشكل بأنواع جديدة عُرفت بالحن.

٢- الحن:

كانت تجمع في تكوينها بين الطين اللازب ولحاء الأشجار، وكانت تنمو من قاع المياه المحملة بالطحالب..

وبمجرد أن تضع قدميها على الأرض كانت تتكاثر بسرعة رهيبة، و عند لمس المياه كانت تنمو جذورها، لتكون مخلوقات مثلها أقوى منها، حتى أصبحت عبئًا بسبب امتصاص المعادن من الأرض لتقوية جذعها الخشبي. وكأنها تكون لنفسها أطرافًا تتحرك بها، بدل الخشب اللحائي الذي تسير به، فصارت متفوقة على البن في كيانها الخشبي...

فاشتد بطش الحن بالبن، وصاروا يتغذون عليهم، ويأخذون من كيانهم الطيني، ليزدادوا قوة وبأسًا وعددًا... فهاجمت مخلوقات الحن مخلوقات البن، وصارت تتخذ من كيانها وعاءً جديدًا للتشكل... ليبدأ تشكل مخلوق جديد اسمه الخن.

٣- الخن:

خلقت من الطين واللحاء، وصارت تتغذى على المخلوقات البحرية، حتى صارت أجزاؤها تحتوي على مادة البروتين، وهي التي ساعدتها على تكوين ما يشبه الغلاف الحيواني الأول؛ إذ اجتمع في تكوينها ثلاثة عناصر وهي: الطين واللحاء والبروتين، استمدتها من الكائنات العضوية الحية التي كانت تفترسها آنذاك، فأصبحت أقوى من البن والحن، ودخلت في صراع مع مخلوقات الحن حتى قضت عليها تمامًا، ثم شنت الهجوم على ما تبقى من البن.

وتعتبر مخلوقات الخن هي أولى المخلوقات التي تحتوى على الدماء، والقادرة على التكاثر مثل الثدييات. وكانت هيئاتها متغيرة وبعضها يشبه الزواحف الضخمة، إلى أن ظهرت الديناصورات قبل مائتي وأربعين مليون عام، ولم تستطع التعايش معها، و قامت الديناصورات بالقضاء عليها.

٤- المِن:

تكونت من البن الذي اختفى في الكهوف خوفًا من بطش الحن، لكنها مخلوقات اضعف من سابقتيها الخن والحن على الرغم من ضخامتها... و كانت لا تملك أعينًا، لكنها تكيفت مع بيئتها المظلمة، فصارت لها القدرة على التحرك بسهولة في الأماكن الشديدة الظلام، معتمدة على مجسّات متحركة في وجوهها، تتحسس بها طريقها...

كانت مخلوقات المن قادرة على التكاثر من خلال الانقسام الميتوزي مثل البن، أو من خلال التزاوج مع المخلوقات الأخرى عن طريق التلقيح الخارجي، لكنها اختفت وتطورت إلى أنواع أخرى...

٥- الدن:

بمثابة مخلوقات انتقالية، جاءت من المن وتطورت، وأصبحت تمشى على أربع، وتعتبر أولى المخلوقات الروحية التي امتلكت عقلًا، لكنها غير مكلفة، وتطورت إلى عدة مخلوقات أخرى في البحر والجو والأرض....

٦- النس:

مخلوقات كتب عنها علماء الأحياء القديمة، بأنها أجداد الإنسان الأولى، حيث خلق منفصلًا عن سابقيه، وخلال خلق النس خلق الله الجن..

هذه معلومات متداولة كثيرًا في الكتب والمراجع المتناولة بداية الخلق، وجميعها قرأها عيسى ممتاز.. أدرك حينها أنه في عصر قبل خلق آدم أبي البشر.. بزمان بعد قتال الجن لما تبقى من الحن والبن والنس وما شابههم..

قطع عزازيل شروده متسائلًا:

- أمجنون أنت لتأتي إلى هنا بقدميك؟؟

- أتعرفني؟؟

- لا.. ولكن منذ طردكم من هنا مُحرم عليكم العودة لأي سبب من الأسباب.

- العودة إلى أين؟؟

- إلى هنا.

– أنا لا أفهم أي شيء.. عذرًا.. فقد فُقدت ذاكرتي في حادث أليم.

– لن يستمعوا لك.. سيعدمونك في الحال.

– هل لك أن تخبرني ما حدث؟؟

لم يصدق عيسى أنه يحاور إبليس اللعين وجهًا لوجه.. سيصمونه بالمخبول لو كُتبت له النجاة من هنا وقصّ عليهم ما رآه.. لن يصدقه أحد.. مُحال..

ابتسم له عزازيل:

– كانت حربًا ضروسًا.

– احكِ لي عنها.

– كانت قبائلهم مفسدة في الأرض.. وتسفك الدماء وتشيع الفساد في كل مكان فأرسل الله جيشًا من الجنِّ وكنتُ أنا على رأسهم قائدًا لهم..

– أنت؟؟

– نعم.. فالله يثق بي كثيرًا .. يا لله.. كم أحبه وأقدسه.

– أتحب الله؟؟

– ومن لا يحبه جل وعلا؟

أتعلم أنني ملقب بطاووس الملائكة؟

– حقا؟؟

– نعم.. النظر بوجهه الكريم لا يُقارن.. اشتقت إليه... فمنذ قدومي إلى الأرض .. لم أُرفع للسماء مجددًا..

– والحرب؟؟

– ما زلت أستمع لأصوات صراخكم كالنساء.. وأنتم تفرون منا حتى اللحظة!

– ولماذا أنت هنا؟؟

نظر حينها للأفق وامتلأت عيناه بالدموع:

– الشر لا يفني!

من جاءوا لسحق الخطائين.. تحولوا بعد فترة مثلهم.. نسوا الله وتعاليمه.. تحدثت معهم كثيرًا ودعوتهم للحق.. ولكنهم صموا آذانهم.. بل ووصموني بتهمة الجاسوسية لنفس المخلوقات التي حاربناها سويًا وكنتُ قائدهم وقتها.. جاسوس لمخلوقات أحتقرها وقتلت أغلبها.. يا لسخرية القدر!

– غدارون..

– الله فوق كل شيء.. أعلم أنه مُنقذي منهم!

– وهل أنا أشبه مخلوقات النِس؟؟

– ألا تعرف جنسك؟؟

– قلت لك أني فاقد للذاكرة!

– نعم تشبههم إلى حد كبير.. ولكنك مستقيم الظهر منسق الحديث غيرهم.. يبدو أنّ الحادث الذي تعرضت إليه غيرك!

نظر إليه عيسى ممتاز محاولًا فك قيوده.. فكرة تطارد عقله في هذه اللحظات.. ماذا لو قتل عزازيل في هذه اللحظة..؟؟ هل سيموت إبليس قبل بدايته؟؟ هل سينتهي الشر من العالم أجمع؟؟ فرصة عظيمة تستحق التجربة.. إنسان مُنحت له الفرصة لقتل إبليس.. لمحو الشر من العالم.. ولكنهم أحكموا وثاقه فلم يستطع فكها..

ضحك عزازيل ناظرًا إليه:

– لا تحاول.. فهم بارعون في ربط الجنازير!

نظر إليه عيسى صامتًا.. مرّ بعض الوقت وسط تهليلهم وضحكاتهم المتصاعدة..

ناداه عزازيل:

– سأخبرك سرًا لم أتحدث به لأحد!

– لماذا؟؟

– لأنني لا أعلم أسأنجو أم أنها النهاية..

– ستنجو!

– الله أعلم.

– أخبرني ما عندك..

– أنا كرهتكم وحاربتكم لأنكم سفكتم الدماء .. وخالفتم عهد الله.. كنت مسيرًا لقتالكم تنفيذًا لأوامر الله!

– تقصد من؟؟

– أنتم.. قبائل النِس.

– حسنًا.

– من يدرى من سينجو منا؟؟

– من يدرى؟؟

– ألك في تفسير الأحلام؟؟

– أعتقد ذلك.

– ألم تقل إنك فاقد للذاكرة؟؟

– جرّب.

– حلمٌ واحد يراودني كثيرًا لا أفهم له معنى!

– ما هو؟؟

– أقف بساحة شاسعة ممتلئة بالضوء بكل أرجائها.. أرى فيها بالكاد بعض اللافتات.. مكتوبًا عليها عباراتلا أفهمها!!

– أي عبارات؟؟

– خزي إبليس.. لُعن إبليس.. طُرد إبليس.. امتنع إبليس.. ثم أرى مكانًا هو كالجنة.. بستان وقصور أقف على بابه.. مكتوب عليه بماء الذهب.. تلك العبارة:

"إن لي عبدًا من جملة المقربين، آمره فلم يمتثل أمري، بل عصى ويعصي، فأطرده عن بابي وألعنه، وأجعل طاعته وعمله هباءً منثورًا".

وأفيق من غفوتي مُرتعشًا في كل مرة أرى فيها نفس الحلم! من إبليس المطرود هذا..؟؟ سؤال يحيرني؟؟ أهناك من يُلعن لهذا الحد من الله؟؟ من يتحمل ذلك؟؟

– أنا أعرفه..

قالها عيسى فسالت دموع عزازيل مُتشوقًا..

تابع عيسى كلامه:

– اسمه في السماء الأولى العابد

وفي الثانية الزاهد

وفي الثالثة العارف

وفي الرابعة الولي

وفي الخامسة التقي

وفي السادسة الخازن

وفي اللوح المحفوظ إبليس.

- وما اسمه في السماء السابعة؟؟

نظر عيسى بعينيه عن بعد:

- خير لك أن تدعهم يقتلونك في هذه المحاكمة!!

تعالت هتافاتهم فوق أصواتهما:

- القتل لعزازيل.

- الموت للجاسوس.

- الإعدام للخارج عن سربنا.

***

ورأيت عمي أخيرًا بين تلك اللقطات العجيبة التي تتداعى أمام عقلي الواحدة تلو الأخرى..

واقتربت الشمس على المغيب.. أرسلت ضياءها على وجهه اليائس، المحمل بأتربة السنين الغابرة، التي أغرقهم جهازه في دواماتها الساحقة..

أفاق إبراهيم قلقاس في طريق صحراوي..

مرتابًا، قلقًا لمصيره، فقد أدرك وحدته بمثواه الحالي من دونهم..

عاد كما كان دون أنيس..

كان هناك طريق أسفلتي، تغدو فيه السيارات ذهابًا وإيابًا بالقرب منه..

تساءل قلقاس هامسًا:

- ترى بأي زمان رسوت؟؟

وقف في عرض الطريق، محاولًا إيقاف أي من السيارات التي تتفاداه، مُعلنةً خوف أصحابها منه..

كانت ملابسه ممزقة وعليها آثار للدماء..

ألقى إبراهيم قلقاس نفسه أمام إحدى سيارات الأجرة، فتوقف السائق رغمًا عنه.

- انتظر.. انتظر.. انتظر!!

قفز قلقاس بجوار السائق، الذي نظر إليه بلا مبالاة، وانطلق في طريقه صامتًا دون حتى أن يسأله إلى أين وجهته..

التقط قلقاس أنفاسه مستمعًا لأغنية بمذياع ذلك السائق.. أغنية لعبد الحليم حافظ:

(أنا من تراب)

- يا رب.. يا رب

أنا من تراب والإرادة هي سرك فيه

تنوره بحكمتك وبرحمتك تهديه

تراب وسرك إذا مس التراب يحييه

الهمني حب الخير حب الجمال والحق

خليني اقول للشيطان مهما غواني لأ

علمني اثبت ولو زال الجبل وانشق

الهمني يا رب علمني يا رب

يا ربي سبحانك يا رب يا ربي سبحانك!

مد قلقاس يده، وأغلق الأغنية مبتسمًا للسائق:

- أدر لنا أغنية تبث الفرحة في النفوس.

- عيوني يا أستاذ!

وضع اسطوانة أخرى فدارت أغنية راقصة تنتمي للمهرجانات..

ضحك قلقاس هامسًا:

- الله يرحمك يا مجدي يا فلفل!

شرد قلقاس في الشوارع والميادين.. إنه بمصر.. ذكرياته في وطنه وليالي به تتداعي على رأسه في تلك اللحظة.. هذه البلد التي لا تتغير..

ابتسم دامع العينين هامسًا:

- مصر.

نظر إليه ذلك السائق المنتشر الشيب برأسه..

- محسوبك سيد الجتة!

- أهلًا وسهلًا.

- ألن تخبرني وجهتك يا سيدي؟؟

قالها متسائلًا بينما لاحظ إبراهيم قلقاس أسلحة، معلقة في جوانب السيارة العلوية.. أسلحة نارية وبندقية..

تعجب كثيرًا من وجودها فسأله:

- ما هذه الأسلحة؟؟ ولماذا تحتفظ بها علانيةً هنا؟؟

أجابه الجتة بابتسامة عريضة:

- حماية يا باشا.. نحن في زمان جاحد، لا يسلم الرجل من الشر إلا بهذه الأسلحة، بالأخص بعد انتهاء الحرب.. لم يعد هناك أمان لأحد!

- أي حرب؟؟

- حرب عظيمة تعرضت لها البلاد! من وقتها لا جيش ولا شرطة انتهوا عن بكرة أبيهم في الحرب! وكما ترى، نحن نحمي أنفسنا بأنفسنا. ولكن عذرًا بالسؤال.. أفاقد للذاكرة أنت؟؟

شك قلقاس في ذلك الزمان الذي قذفه جهازه إليه..

ارتاب بأنه قد يكون في مستقبل ما لم يأتِ بعد..

همس مُجيبًا السائق:

- لماذا تسأل؟؟

- لأنك تتعجب من شيء نعيشه جميعًا..

– ألم يكن جديرًا بسؤالك مظهري؟؟ وتلك الدماء على ملابسي؟؟

– كلا.. مظهرك أمر معتاد.. قلت لك لا جيش ولا شرطة.. نحن نقتصّ لحقوقنا بأيدينا.

– غابة؟

– صدقت.. هي كالغابة حقّا.. وحوش ضارية يأكل القوي فيها الضعيف.

– في أي عام نحن يا سيد؟؟

كان الطريق مزدحمًا للغاية.. تعالت أصوات السيارات وأبواقها المختلفة.. فتلاشى صوت الجتة خلف ضوضائهم.. ولكن قلقاس سمعه بوضوح وتأكد أنه في المستقبل البعيد..

فتح الجتة شباك بابه، وصرخ في سيارة بجواره بعصبية شديدة:

– فلتمرّ أيها الوغد.. أمك اشترتها لك لتضايقنا نحن.. خسئت!

توقفت السيارات بعدها تمامًا.. الطريق مغلق..

فتح قلقاس بابه وترجل خارج السيارة.. كان بمنطقة وسط البلد على مقربة من ميدان التحرير.. ابتسم حينها مُشتمًا عبق الماضي..

كل شيء كما هو لم يتغير ولكن تبدلت بعض الأبنية بغيرها أكثر حداثة.. وكذلك السيارات تغيرت أشكالها وتنوعت، وبقي بعض من الأنواع القديمة كما هي.. فذلك الزمان لا يبعد كثيرًا عن زمنه.. نظر في وجوه الناس متعجبًا:

الوجوه كما هي مهمومة بالمستقبل.. الناس كالمواشي تدور بالسواقي، لا تكل ولا تمل على مر العصور.. مشغولون بالحياة ومتطلباتها.. وسيظلون

كذلك إلى أن تقوم الساعة.. نظر ناحية بيته القديم.. لم يعد له وجود.. وشُيد مكانه ومكان عدة بيوت كانت تجاوره قصر فخم..

يبدو أنه سفارة أو مبني حكومي.. أدرك ذلك بسبب تلك الأعلام المرفرفة عليه.. برقت عيناه حينها.. أعلام تتوسطها نجمة داوود.. أعلام دولة إسرائيل.. هل نقلت السفارة الإسرائيلية إلى مكان بيته القديم؟؟ تبا لذلك.. رأى قلقاس قوات من الشرطة تشبه المارينز.. مدججين بالأسلحة يسدون الطريق..

اضطر للعودة للسيارة، كان السائق بجواره متذمرًا:

- لن نعاود بيوتنا اليوم!

نظر إليه قلقاس مستفسرًا:

- ألم تقل إن مصر خاوية من الجيش والشرطة؟؟

- مصر؟؟

قالها الجتة متعجبًا:

- نعم!

- أنت عجيب يا رجل!! تحدثني عن أمور مضت وتناسيناها كلنا؟

- أي أمور تلك؟؟

- مصر.. لم نسمع تلك الكلمة من زمان بعيد!

- أمجنون أنت؟؟ نحن نقف على أرضها!

– لا نحن في إسرائيل.. في دولة إسرائيل الكبرى!

– ماذا؟؟

– هذا ما انتهت إليه الحرب وما يدرسه أولادنا في مدارسهم وما يعلنونه علينا ليلًا ونهارًا في وسائل الإعلام.. نحن بدولة إسرائيل الكبرى!

– وأين ذهبت مصر وأهلها؟؟

– سمعت جدي يحكي ذات مرة أنهم ثاروا مرارًا وتكرارًا ضدهم.. ملأوا الدنيا ضجيجًا.. وملأوا هم الدنيا دماءً وقتلى بكل مكان.. من يعترض يقُتل.. يُعدم على شاشات التلفاز.. لم يتحملوا تقسيم مصر لولايات.. مشانق جماعية نُصبت هنا بالتحديد بميدان التحرير.. عشرون مليون من القتلى الشرفاء.. وبمرور الوقت.. رضخ الباقون للأمر الواقع.. وتغير كل شيء بعدها.. ومن التقسيم إلى الاحتلال إلى الإحلال.. وباتت مصر تاريخًا يُمحى.. في الكتب.. في المراجع بالمكتبات.. تاريخ آخر حل محل تاريخنا.. أخبرني جدي أن كل ما يصل إلينا مزيف.. تبدل بفعل فاعل.. وشبت الأجيال الجديدة بين نارين: نار الثورة القديمة من حكاوي أجدادهم، ونار الخضوع لإسرائيل الموجودة حولهم كأمر واقع في كل مكان.. حتى قبلوا بجحيم سلامهم المزيف.

– وأنت؟؟

– مثلهم.. أريد العيش بسلام حتى وإن كان في الجحيم.. فلتصمت قليلًا.. يبدو أنه سيمر الآن!

– من سيمر؟؟

– المحبوب الأعظم!

– من هذا؟؟

– رئيس وزراء إسرائيل.. فهو في زيارة سريعة للبلاد لافتتاح معبد قصر النيل.

– معبد قصر النيل؟؟

– نعم فمُعتنقو اليهودية في تزايد يومًا بعد يوم!

– لا أصدق ما تسمعه أذناي.. اللعنة.

– اصمت حتى لا يسمعنا أحد، أرجوك!

كان الميدان مزدحمًا للغاية مكتظًا بالناس في كل اتجاهاته.. تركه قلقاس وابتعد عنه مخترقًا زحامهم.. كانت هناك سيارة تابعة للإعلام تتوسط الميدان، وأمامها كاميرات ومذيعة تتحدث.. استمع قلقاس لها مذهولًا:

– ها نحن بانتظار العظيم ورؤيته في زيارة سريعة لمقاطعتنا.. السيد رئيس وزراء إسرائيل الكبرى العظيم، كما يحب أن نطلق عليه في وسائل الإعلام.. وهو يستحقها حقا.. فبوجوده عمّ السلام ونعمنا جميعًا بجنته ورضوانه..

سننقل لكم الحدث الجلل لحظة بلحظة.

***

وازداد التيه على أشده علينا بأزمنة مختلفة، ولكننا جميعًا في مأزق واحد.. نواجه الموت في أية لحظة: أنا مُنتظر طوفان النبي نوح شاهدًا على تورطهم بأزمنة أخرى دون أن أجد تفسيرًا لذلك، وعزام عزام مصلوب بجوار عيسى بن مريم بأورشليم القدس، ونوح سقراط متهم باليهودية في محارق هتلر، وعيسى ممتاز المحبوس مع إبليس في فجر التاريخ داخل قفص واحد، ومحكوم عليه بالموت مثله، مرميًا باتهامات عجيبة، مُعتقدين بأنه من النس والبن، أولئك القوم السابقين لخلق الإنسان العاقل آدم أبي البشر..

وإبراهيم قلقاس الملقى في زمان لم يأتِ بعد، مواجهًا رئيس وزراء إسرائيل، المسيطر على مشارق الأرض ومغاربها في المستقبل.. وكأن الدنيا بأكملها منذ بدايتها كتاب مفتوح أمام عيني ، أنا فقط من أتابع بداية القصة ونهايتها من خلالهم ..أنا آدم..

بدءًا من خلق آخر فنوا عن آخرهم لقتالهم بعضهم البعض، وسفكهم الدماء، وحل محلّهم قبائل من الجنّ، فعلوا فعلتهم بعد برهة من الزمان، فلقوا نفس المصير، ليأتي آدم وحواء ليعمرا الأرض، لتتكرر آثام سابقيهم، فيرسل الله الطوفان ليطهر نسلهم، ومع ذلك تتكرر أفعالهم النجسة مرارًا وتكرارًا، والله لا يمل من تحذيرهم!

فقوم يهلكون هنا، وقوم يُخسف بهم الأرض هناك.. إنذارات متعددة ولا رادع لهم.. للبشر.. قتلوا الأنبياء والصالحين.. أشاعوا الفساد في البر والبحر حتى النهاية.. ليبقى الإنسان غارقًا في شروره.. غارقًا في تيه صنعته أفعاله، لا ينتهي حتى يوم القيامة..والآن أدركت الحكمة من ذلك..إنها رسالة من الله لي..رسالة إلى آدم جديد ولكن هل هناك منجى من تلك المهالك؟

حدث جلل بأزمنة متوازية، يدور كشريط سينمائي مبهر.. كُتمت أنفاسنا ونحن نقترب من الموت رويدًا رويدًا.. وكأننا ألوان متناثرة في لوحة فنان عبقري، تتجمع لتكون أعظم لوحاته.. عذاب الدنيا.

جنود هتلر تجرجر نوح سقراط بحدّة منقطعة النظير مهللين:

- أيها الوغد.. يهودي قذر!

سنحرقكم.. سنسحقكم..

سنمحوكم من التاريخ!

وفي ساحة أورشليم القدس يجردون عزام عزام من أغلب ملابسه، ويجرّونه لموقعه من الصلب على يمين عيسى بن مريم، وسط تهليل اليهود:

- اقتلوه.. اصلبوه!

وهناك داخل قفص على حافة التاريخ الأول، قبع عيسى ممتاز مُقيدًا بجوار عزازيل -إبليس المستقبل- قبل أن تبدأ محاكمته.

نظر عيسى ممتاز إلى عزازيل مبتسمًا:

- أريد أن أخبرك سرًّا.

- أسمعك.

- أنا مخطئ.

- ماذا تعني؟؟

- قضيت عمري كله أبحث في المجهول وضاع عمري هباءً منثورًا.

- لا أفهمك.

- لو أنني وجهت علمي للناس وحرصت على توجيههم للطريق المستقيم.. طريق الله لكان خيرًا لي من الحديث عن الأهوال والمجهول.

- لا تقس على نفسك.. فهذا حالنا نحن المدافعين عن الله والمرشدين إلى طرقه.

وانخرط عيسى بضحك هيستيري وسط تعجب عزازيل..

وبزمن لم يأتِ بعد وقف إبراهيم قلقاس مفكرًا بوحي شيطاني.. لو أنه يُقنع ذلك الرجل رئيس وزراء إسرائيل بقصته، واختراعه للتنقل عبر الزمن، لتمكن من العودة مجددًا لزمنه، بعد تسخير إمكانياتهم لصنع طائرة مناسبة لجهازه من جديد، وربما إعادة المحاولة مرة أخرى بالعملية صقر، وإصلاح كل شيء.. هكذا أعتقد.

وأنا قبيل طوفان نوح وسط الكفرة العمالقة.. بيد طفلة ساذجة تعتقد بأنني إله من الحجر.

صرخ نوح سقراط كثيرًا دون جدوى، وهم يدخلونه غرفة كبيرة من غرف الغاز المميت، بعد تجريده من ملابسه.. لم يعبأوا بصرخاته.. خطر بباله فكرة قد تنقذه.. هلل بهم عاليًا:

- أريد مقابلة هتلر.. سأخبره بأمر خطير يدبره له الأعداء أريد مقابلة هتلر.. أريد مقابلة هتلر!

نظر الجنود النازيون حينها إلى بعضهم البعض.. همس أحدهم:

– هراء.. يريد اكتساب الوقت فقط!

– فلنخبر الزعيم وهو من يقرر.

– حسنًا.. أوقفوا الغاز.

وقف نوح سقراط غير مصدق ما يواجهه في تلك اللحظات.. رجل السلطة ورئيس دولة بحجم مصر يقف عاريًا بمحرقة من محارق الهولوكوست، محكومًا عليه بالموت من النازي هتلر..

الرجل الذي انتهج منهجه في القضاء على أعدائه الملاعين.. الإخوان.

وبساحة أورشليم القدس تجمع يهود القرية عن آخرهم، يهللون فرحين بالصلب وبقرار بيلاطس البنطي، بالتخلص من عيسى بن مريم.. جذب جنود الحاكم الروماني يدي عزام عزام رغمًا عنه على الصليب الخشبي.. وبمطرقة نحاسية قاموا بدق مسامير حادة بكلتا يديه، وربطوا قدميه من الأسفل بجوار بعضهما البعض.. كانت المسامير مؤلمة للغاية.. تعالت صرخات عزام عزام:

– لست من تعتقدون.. لم أكن يومًا لصًا..

اتركووووووووووني..

لم يستمع له أي منهم.. وكأنه لا وجود له.. كان عيسى بن مريم مبتسمًا، وكأنه لا يواجه الموت بين لحظة وأخرى.. نظر عزام ناحيته.. لم يتخيل يومًا

أن ينتهي به العمر بهذا الزمان، مصلوبًا بجوار عيسى بن مريم، مُشبهًا لقومه بأنه لص اليمين..

واخترقت المسامير يدي عزام عزام صارخًا بعلو صوته:

– آآآه!

وصرخ العِلم صلبًا بجوار المسيح.. ذلك العلم أخفاه متسترًا على تزييف التاريخ عبر الزمن، ومنعه عن الناس خوفًا من المواجهة..

لحظات صعبة تمر علينا نحن الخمسة.. وكأن الزمن قد توقف عند كل منا.. مستعدًا لوحش كاسر يدعى الموت..

أصبحت مقلوبًا بيد الطفلة العملاقة مصابًا بالدوار الشديد.. آدم قلقاس مجرد دمية تتلاعب به هذه المعتوهة..

اقتربت أمها من تجمع آخر داخل السوق، لمجموعة كبيرة من الرجال والنساء يلتفون حول رجل يقف في المنتصف، على منصة عالية.. رأيته مقلوبًا محاولًا أن أعتدل برقبتي دون جدوى!

تحدث الرجل في شراسة وحدة، بغلٍّ منقطع النظير:

– إنا لنراه في سفاهة.. مؤكد اعتراه أحد آلهتنا بسوء.. ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه.. ويشرب مما تشربون..ولئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذن لخاسرون..

تساءل في سخرية:

– أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا.. أنكم مخرجون..؟؟ هيهات هيهات.. لما توعدون!

قالها عدة مرات نافيًا بقوة.

– إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.. إن هو إلا رجل افترى على آلهتنا كذبًا وما نحن له بمؤمنين..

أدركت حينها أنه يقصد النبي نوحَ.. إنني أعايش الآن جحود قوم نوح!

همستُ ساخرًا:

– يا لكم من مغفلين!

استكمل الرجل خطبته الكافرة مسيطرًا على عقول قومه المصفقين له بكل مناسبة ممكنة.. رأيت بجواره شيئًا لم يكن في الحسبان مطلقًا.. دعكت عيني غير مصدق ذلك.. كان جالسًا فوق كتفه الأيمن.. طفل في السابعة من عمره مبتسمًا.. دققت النظر.. إنه حقيقة.. كان ذلك الطفل هو أنا.. حينما كنت في السابعة من عمري.. نفس الملامح ونفس الابتسامة.. كان ينظر تجاهي.. يراني ضاحكًا.. العجيب أن الرجل العملاق لم يشعر به، ولم يسمعه على الإطلاق..

رأيته يشير لي بشيء في يده.. يا لسخرية القدر.. إنه جهاز إبراهيم قلقاس الصغير الذي كان بيدي قبل ذلك التيه.. لوهلة شعرت بفرحة عارمة.. لم أشغل بالي بتفسير رؤيتي لنفسي طفلًا ممسكًا بطوق النجاة.. كل ما فكرت

فيه حينها هو اللحاق به، والإمساك بذلك الجهاز، والضغط عليه لأتمكن من مغادرة ذلك الزمان المحكوم عليه بالفناء.. ومن زمان إلى آخر حتى أنجح في النجاة..

فجأة قذفتني الطفلة في الهواء عدة مرات.. في كل مرة أطير في الهواء كاتمًا صرخاتي، خوفًا من الوقوع أرضًا، مُتابعًا الطفل المُنقذ المستمر بضحكاته لي..

ظلت تتلاعب بي في الهواء دون توقف..

نهرتها أمها بعد فترة:

- كفي عن اللعب بالإله، حتى لا يقع وينكسر ويغضب منك..

تمادت الطفلة في لعبها عندًا في الأم، وعلى وجهها ابتسامة مستفزة..

ضربتها أمها على وجهها فبكت الطفلة.. وقذفتني إلى الهواء وتركتني أقع استمرارًا في عنادها لأمها..

صرخت بتلقائية:

- النجدددددددددددددددددددة!

صرخت الطفلة مذعورة ناظرة ناحيتي:

- الإله يتكلم.. الإله يتكلم.. الإله يتكلم!

وقعت على الأرض متوجعًا للغاية، وكأنني سقطت من عشرة أمتار، ولعل ما قلل من هول الصدمة بالأرض ذلك الكوم الذي سقطت فيه.. تبًّا لهذه

الرائحة الكريهة.. أظلمت الدنيا من حولي فقد غُرزت تمامًا في ذلك الكوم الكريه.. غطاني واختفيت داخله كنت أسمعهم من الخارج يصرخون:

– الإله يتكلم.. الإله يتكلم!

انقلبت الساحة رأسًا على عقب، وانتشر الهرج والمرج في المكان شخص ما يزيل بعضًا من هذا الكوم عن وجهي.. رأيته: الطفل ذا السابعة من العمر.. رأيتني طفلًا ضاحكًا مستهزئًا بي.. ورأيت العمالقة يجرون في كل مكان هلعًا.. يكادون أن يدهسوني، ولعل ما حماني ذلك الكوم الذي يخطون فوقه، دون أن يغرسوا أرجلهم فيه.. ضحك الطفل كثيرًا على حالي.

– علام تضحك؟؟

– عليك!

– كيف ذلك؟؟ أنت تشبهني كثيرًا عندما كنت طفلًا.. وحجمك حجم الأطفال في زماننا.. كيف ذلك؟؟

– أنا أنت يا آدم..

– لا أفهم شيئًا.

– لن تفهم الآن.. عليك بالفرار من هنا قبل فوات الأوان! خذ.. ذاك جهازك..

– ما هذه الرائحة الكريهة؟؟

– أنت ببراز الديناصورات.. يبيعونها كسماد عضوي للزراعة.

- براز الديناصورات.

- هلم سريعًا فالطوفان على الأبواب!

ناولني جهاز التنقل عبر الزمن بيدي، وسط فوضى أقدامهم المتسارعة فوقنا..

في هذه اللحظة استسلم عزام عزام بزمان آخر للموت.. لم يعد هناك مفر من ذلك..

نظر ناحية عيسى بن مريم هامسًا..

- أعلم أنّ جزائي هذا عادل..

كنا ندعو بصلواتنا.. اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع وقلبٍ لا يخشع.. وأنا امتلكت العلم وحبسته، خوفًا من مصير كمصَّيرك..

والآن أتلقاه مثلك.. أموت صلبًا..

صرخ عزام عاليًا:

- المغفرة يا رررررررررررررررب!

وصوت رخيم يعلن بدأ المحاكمة، بعصر ما قبل الإنسان، بجوار إبليس المستقبل، ليعم الصمت المكان بأكمله:

- محكمة!

همس الشيخ عيسى ممتاز لعزازيل:

- كلنا سنخضع للمحاكمة.. يومًا ما ستتكرر.

وسنقف نحن وأنت أمام من لا يغفل ولا ينام.

سقطت دموع عزازيل.. وامتزجت بدموع الشيخ عيسى..

وسارينة عالية، تعلن قدوم رئيس وزراء إسرائيل على سيارته المكشوفة، مُحاطًا بعدد لا نهائي من الجنود والضباط الإسرائيليين، وطائرة تجوب ميدان التحرير فوق إبراهيم قلقاس تؤمن المكان وتكشفه بالكامل.. وانحنى الجميع عند رؤيته للأسفل، ماعدا قلقاس ظل واقفًا وحيدًا وسط غابة من الخاضعين.. توقف موكب العظيم ناظرًا لقلقاس المنتصب الرأس أمامه، مشيرًا ناحيته:

- لماذا لا ينحني ذلك الرجل؟؟

وبالمعسكر النازي وقف نوح سقراط، داخل غرفة الغاز الزجاجية أمام هتلر المُنتظر لحديثه المزعوم..

صاح به نوح :

- يا هتلر.. ما تفعله سيقويهم أكثر وأكثر!

ويمنحهم شرعية ونحيبًا على قتلى سيصفونهم بالشهداء.

سيعودون أقوى مما كانوا مهما مر الزمن.. وستذهب أنت ومن والاك إلى مزبلة التاريخ..

صرخ هتلر غاضبًا:

- افتحوا الغاز على هذا الوغد.. اقتلوه!

في هذه اللحظة ضغطت على زر التشغيل بالجهاز.. زلزال قوي يغتال الأرض من تحت أقدامنا بالأزمنة الخامسة.. لم ننتقل كالمعتاد للدوامة الزمنية.. بقينا بمكاننا نواجه الموت وجهًا لوجه.. تعالت صرخات القوم العمالقة من هول تلك الاهتزازات الأرضية..

ارتاب هتلر من تلك الهزات المفاجئة مبرق العينين.. انتشر الهلع بنفوس اليهود بساحة أورشليم القدس.. رفع عيسى بن مريم رأسه إلى السماء مبتسمًا بعينيه الخاشعتين..

ارتجّت ساحة المحاكمة بمن فيها من الجنّ، قبل نطق الحكم على عزازيل وعلى عيسى ممتاز.. تساقطت الأبنية واحدًا تلو الآخر بميدان التحرير.. فرّ رئيس وزراء إسرائيل بسيارته.. تعالت الصرخات والأتربة في الأزمنة الخمسة.. وقف الجميع شاخصة أبصارهم، راجفة قلوبهم، بمختلف ثقافتهم وأزمنتهم المتباعدة.. يا للهول ماذا أرى؟

ها هي أمواج عاتية عالية، يصل طولها لأكثر من مئة مترًا تظهر في الأفق.. أمواج تقترب من كل مكان.. إنه الطوفان!

طوفان ساحق ليس بزمان نوح فقط.. ولكنه يجتاح الدنيا بكافة أزمنتها.. أمواج تعلن الموت للجميع.. وفي لحظات طغت المياه على كل شيء حي.. هتلر ورجاله ودولته ومعسكراته.. عزازيل وقومه من الجن.. العمالقة قوم النبي نوح.. اليهود بأورشليم القدس.. دولة إسرائيل العظمي المهيمنة على مصر بالمستقبل.. غرق كل شيء.. طوفان يمحو الرجس من جذوره.. حل

أخير بعد كل هذه الإنذارات التي أرسلها الله لعباده، ليمحو أولئك المتكبرين المتغطرسين أو الخاضعين لهم الساكتين عن الظلم.. حتى أولئك الأشخاص الممثلين لدين الله، التاركين للعفن يتغلغل في أجساد عباده يومًا بعد يوم..

كنت أقاوم الغرق وسط ملايين الغرقى والجثث.. رأيت عن بعد الشيخ عيسى وعزام عزام وعمي إبراهيم قلقاس ونوح سقراط، كلٌ يقاوم مثلي بمفرده.. نصارع الأمواج الغاضبة..

نظرت إلى السماء المعلنة عن غضبها هي الأخرى، بأمطار لا تنقطع ورعد يخلع القلوب..

قاومت بكل قوتي.. وكذلك هم.. صرخت عاليًا بالكاد:

- يا رب.. ارجعنا لعلنا نعمل صالحًا.

يا اااااااااااااااااارب!

صرخ عيسى ممتاز هو الآخر:

- سنعود يا الله.. لن نحيد عن طريقك المستقيم.

يا اااااااااااااااااارب!

صرخنا جميعًا بصوت واحد على الرغم من بُعدنا، ونحن نصارع الموت في اللحظات الأخيرة:

- ارجعنا يا الله.. يارب ارجعون!

ترى.. هل سننجو من الطوفان ونعود لزماننا نقاوم كل التحديات؟؟ أم سنموت مغضوبًا علينا محكومًا علينا بالتيه؟؟

همست مُدركًا مغزى تلك التجربة الصعبة بتلك اللحظات، وسط أمواج لا ترحم ناظرًا إلى وجوههم المُضطربة المقاومة للغرق:

– حقا، نحتاج لطوفان جديد ليقتلع الشر من جذورنا

ولكن من منا سيغدو بسفينة الله نحو المستقبل؟

من منا يستحق النجاة؟

-تمت-

قلقاس بن فرناس

د. عمرو البدالي

٢٤ يناير ٢٠١٩

روايات أخرى للكاتب:

- عفريت العلبة
- بربونيا "جريمة مملكة السمك"
- بكالوريوس إعدام
- النبَّاش ١

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/amr.elbadaly1

أو

https://www.facebook.com/amrelbadaly20/